



العَبَاسِ بْنُ الْأَحْنَفِ

شَاعِرُ الْحُبِّ وَالْغَزَلِ

إعداد

محمد علي الصباغ

ماهستير في اللغة العربية وأرابها

الأعلام من الأذى باغ و الشجراء

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

الجِيَاسُ بْنُ الْحَنْفَى

شاعر الحب والفن

إعداد

محمد عابي الصبّاح

ماهستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

مَكْتِبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ
www.lisanarab.com

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظٌ
لَّدْرَالْلَّتْرَنِ الْعَلَيْمَةِ
بَيْرُوت - لِبَنَان

الطبعة الأولى
١٤١١ - ١٩٩٠ م

طبّاص: دار اللترن العليمه بيردت. لبنان
مرتب: ١١/٩٤٢٢ تلکس: ٤١٢٤٥٦ Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة

يُعد العباس بن الأحنف ظاهرة فريدة في دنيا الشعر والأدب في العصر العباسي، لأنه أول شاعر متخصص - كما نقول الأن بلغة العصر - وشخصيته هذا كان في المرأة لا يتعداها إلى سواها من الموضوعات، فكان بحق شاعر الحب والغزل العفيف والشكوى والتوجع، لم يتجاوز ذلك إلى رثاء أو مدح أو هجاء، كما فعل أقرانه في العصر العباسي. لقد عاش حياته للحب والشعر، وسخر ملكته الفنية السخية للفن وحده، يُسعد به الناس دون أجر، ويدخل السلوى إلى قلوب المحبين دون جزاء، فلم يمدح عظيمًا أو صاحب سلطان، ولم يهجن خصماً، فكان بحق قيثارة عنيدة الإيقاع على شفتي الزمان، وطائرًا غريداً يشدو بأرق الأنغام وأعذب الألحان، كانت حياته مسرحية عاطفية رائعة تخللتها حرارة الحب، ومرارة الصد، وحرقة الشكوى، ولوحة العشق، وفرحة الوصول، وأمل اللقاء، ومشاهد الحرمان.

كان العباس بن الأحنف يتنفس حباً، ويفكر حباً، ثم مات وجداً وحباً، فكانت وفاته قصة محزنة مفجعة، فقد وافته

المنيَّة غريباً وحيداً مسافراً، هائماً على وجهه على طريق الحجيج ، وأسهم في مشهد وفاته غلامه وطائر حزين يشكو ألمه ويبيث حزنه من على فرع احدى الأشجار القرية في مكان احتضار الشاعر، ثم شارك في تكفيه والصلة عليه قافلة من حجيج بيت الله . مما سوف نعرفه لاحقاً عن هذه القصة كما رواها لنا أديبنا الكبير الأصممي . حقاً لقد كانت حياة العباس بن الأحنف كما وصفها في إحدى قصائده، شمعة تضيء للناس وهي تحترق :

أَخْرَمْ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ
نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشِقُوا
صِرْتُ كَائِنِي ذُبَالَةً شُعْلَتْ
تَضِيَّهُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ



سمات مجتمع العصر العباسي

أ - مجتمع جديد: كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالاً، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر والعراق وإيران والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب؛ وهي أوطان كثيرة كان يعيش فيها منذ القديم شعوب متباعدة في الجنس واللغة والثقافة.

فهو إذن مجتمع يختلف في تكوينه وتركيبه وثقافته وعاداته عن المجتمعات السابقة التي ألفناها في صدر الإسلام وعهد بني أمية، ونعني به ذلك المجتمع الذي ولد أبناؤه ونشأوا في ظل الدولة العباسية، بكل ما تميزت به من سلوك ثقافي، وما انفردت به من تحلل اجتماعي جاء نتيجة لتغير المجتمع من عربي السلوك إلى فارسي السمات، ومن ريفي العادات إلى مدنى المتنزع والمسلك، فمن المسلم به أن المدينة بتراحم سكانها، وضعف الرابطة بينهم وكثرة الغرباء فيها والوافدين

إليها مما يجعلها قابلة لكل أسباب الانحراف ومظاهر التحلل .
أضف إلى ذلك إنشاء عاصمة جديدة تماماً هي بغداد ، في
إقليم يختلف عن إقليم العاصمة السابقة الكوفة والشام ، في
نطاق ثقافة وعادات وافية غربية على العرب هي الثقافة
والعادات الفارسية ، تحت حكم سياسي مختلف هو الحكم
العباسي المستند إلى النفوذ الفارسي ؛ كل هذه المعطيات
كانت منطلقاً لمجتمع جديد ذي عادات جديدة بعضها أصيل
وبعضها الآخر ناشيء مختلف ، وأفكار جديدة أقلها حسن
مقبول وأكثرها مرذول .

وتصدر موائد الشعر في هذه المرحلة جماعات من
الشعراء أكثرهم من غير العرب ، وحتى العرب منهم على
قلتهم كانت البيئة الجديدة قد أفسدتهم وجعلتهم يقبلون من
العادات ما يستحبها قومهم ، ويتبعون من السلوك ما يتنافر
مع تقاليدهم ومرءوتهم ، حيث جعلوا الخلاعة شعاراً ،
والمجاهرة بالفاحشة عنواناً ، والتحلل الخلقي ديدناً ،
والابتعاد عن القيم مقصداً ، والزندة معتقداً .

شعراء خلعوا العذار ، ونضوا الحباء ، وجاهروا بالمعصية ،
وأعلنوا الانحلال الخلقي وتبنيوا الزندة حيناً والشعوبية حيناً
آخر . وليس بينهم إلا من هو متهم في عفته أو عقيدته ، فقد
كانوا دعاة إلى كل مأثم ومبشرين بكل انحراف .

لقد أشاعوا الخمر ومجالس الخنا، واعلان معاشرة الغلمان، والتطرف بإعلان الإلحاد والسخرية من الدين، فضلاً عن نمو الشعوبية والحملة على العرب وتحقيرهم والفخر بالفرس والعصبية لهم. إن هؤلاء هم أبناء البيئة الجديدة بخيرها وشرها.

ب - الشعوبية: نادى الإسلام بقوة لهدم الفوارق العصبية للقبائل والفارق الجنسي بين الشعوب، حتى يسود الوئام بين أفراد الأمة الإسلامية، فلا عدناني ولا قحطاني، ولا عربي ولا أعجمي، إنما هي أمة واحدة يتساوى أفرادها في جميع الحقوق والواجبات ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح؛ غير أننا لا نكاد نصل إلى عصر الخليفة الرابع وما نشب في عهده من حروب وفتن، حتى نرى العصبيات القبلية تعود مجدداً بين القبائل، بل لقد اضطررت اضطرااماً لم يهدأ أواره طوال عصربني أمية. وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادة الدين في معاملتهم للموالي، مما سبب في اضطغافهم على العرب، وعظم حقد هؤلاء الموالي على الدولة الأموية، وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم، فالتفت جماعات كثيرة منهم حول أبي مسلم الخراساني داعية العباسيين بخراسان، وما لبثوا أن زحفوا في جيش عظيم أدالوا به دولةبني أمية صالح العباسيين، فتراجع بذلك العنصر العربي وبرز على

الساح العنصر الفارسي ، فنفذ إلى المناصب العليا في الدولة العباسية الجديدة التي قامت على أنقاض الدولة الأموية، بحيث صار منهم أكثر القواد وأكثر الولاة، وخاصة حين استولى على مقاليد الحكم البرامكة في عهد الرشيد، وبنو سهل في عهد المأمون.

وقد كان هذا التحول الخطير في انتقال مقاليد الحكم إلى المجتمع العباسي سبباً في بروز النزعة الشعوبية نسبة إلى الشعوب الأعجمية، وهي نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب - وخاصة الشعب الفارسي - للعرب مفاخرة مستمدبة من حضارتهم، لما كان العرب فيه من بدأوة وحياة خشنة، فنظروا إليهم نظرة ازدراء ورفعوا أنفسهم فوقهم مراتب، هؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبية، إذ قوموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنقصوا قدرهم وصغّروا شأنهم، وكانوا طوائف مختلفة، وكان منهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان، ومنهم القوميون الذين كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقوضوا أركان دولهم، وهي مشاعر مازالت تحتدم في نفوس الفرس خاصة حتى أحياها لغتهم ودولتهم فيما بعد، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترب بها من خمر ومجون واستمتاع

بالحياة. فالشعوبية إذن هي هذا التعصب الفارسي وغير الفارسي ضد العرب، الذي كشف القناع عن وجهه في ظل الحكم الهاشمي العباسى المعتمد على ركائز فارسية، الأمر الذى سار بالمجتمع الإسلامي إلى التمزق والتشرد، وكان حصاده شوكاً وعلقاً، وقد اعتمد هؤلاء الشعوبيون على مبررات يلتمسونها لأنفسهم تأخذ حيناً شكل الدفاع عن النفس وأحياناً كانوا ينطلقون من عقدة كراهيتهم للعرب فيهجونهم متظوعين دونما مبرر لهجائهم، أو دون أن يحفلوا باختلاف سبب لهذا الهجاء. فقد كان الشاعر منهم يُنشِّئ طرزاً من النقائض يثبت فيها مجد أمة العرب، ويفاخر بقومه الفرس، ويذكر انتصاراتهم على العرب، مع نيل شديد من بروءات القبائل العربية، وفخر شديد بأعجميته وفارسيته.

ج - الزندقة: إن الملاحدة الزنادقة^(١) كانوا أشد عنفاً وغيظاً من العرب، وكانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة، وكانت أهم مطاعنهم التي وجهوها إلى العرب أنهم كانوا بدواً رعاة أغنام وإبل^(٢)، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدنية ولا معرفة بالعلوم، فأين هم قديماً من ملك الاكاسرة والقياصرة؟ وأين هم من

(١) وهم أصحاب المذهب القائل بدوام الدهر من أصحاب زرادشت.

(٢) جمال.

الحضارة الفارسية والرومية؟ وأين هم من علوم الهند والفرس والكلدان واليونان والرومان؟ وأخذوا يتبعون مثالهم ويحصونها عليهم ويستقصونها، وفليسوا بين ما عندهم من المعارف والتعمق في السياسة وبين ما للعرب من حكم مثورة، كما حاولوا تقييع بعض شيمهم الرفيعة كشيمة الكرم. وزعموا - فيما زعموا - أن الرسول ﷺ فضلهم على العرب، وحاولوا أن يستلوا قريشاً قوم الرسول من العرب ويدخلوهم في غمارهم. كما كان رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر بن الحسين كانوا يُذكرون نار هذه الشعوبية فيمن حولهم من الفرس. وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر. ويظهر أن الفرس كانوا قد نشطوا نشاطاً واسعاً في نشر الزندقة بين الناس ونشط معهم كثير من الزنادقة أنفسهم يترجمون كتب النحل الفارسية ويصنفون في الدعوة لها وفي تعاليمهما، كما أن بعض النصارى نقلوا إلى العربية كتب بعض مارقة النصارى وملحدتهم، فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس، وكانت البصرة أكبر وكرٍ حيثٍ للزنادقة والملاحدة، ففيها نبت وعاش بشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وحماد عجرد وغيرهم، وكانت الزندقة قد ارتبطت في وقت ما بالظرف حتى أصبحت صفة

زنديق من دلالات ظرف صاحبها، وكان المرء منهم يصطنع الزندقة حتى يقال عنه إنه ظريف، فهذا الشاعر محمد بن زياد الخاركي اصطنع الزندقة وها هو يعلن زندقته في شعره فيقول:

قد كنت أرجوك إلى سلوة
فطال في حبسِ الضئى لبئي
وعشت كالمغرور في دينه
يُوقنُ بَعْدَ الموتِ بالبعثِ

وكذلك أبو نواس يعلن زندقته في عرض حياته ولم يعد إلى دينه إلا حين دب في جسمه دبيب الموت وها هو يعلن زندقته حيث يقول:

بَا ناظراً فِي الدِّينِ مَا الْأَمْرُ
لَا قَدْرٌ صَحْ وَلَا جَبْرٌ

مَا صَحَّ عَنِّي مِنْ جَمِيعِ الَّذِي
تَذَكَّرُ إِلَّا الْمَوْتُ وَالْقَبْرُ

كما كان يحيى بن زياد الحارثي - وهو ابن خال أبي العباس السفاح - يعرف بالزنديق لظرفه، وكان يضرب به المثل، فإذا أريد وصف إنسان ما بالظرف قيل: أظرف من الزنديق وقد عني بذلك يحيى بن زياد نفسه. وفي هذا المعنى يقول الشاعر الحصيف:

تَرْنَدَقَ مُعْلِنَا لِيَقُولَ قَوْمٌ
إِذَا ذَكَرُوهُ زَنْدِيقٌ ظَرِيفٌ

د - المجون: ورث المجتمع العباسي كل ما كان في المجتمع الساساني الفارسي من أدوات لهٍ ومجون، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مصرفية، فإذا الفرس المنتصرون يمعنون في مجونهم ويمنعن الناس معهم، فقد مضوا يعبون الخمر عباً ويحتسون كؤوسها حتى الشمالة، وحاکاهم في ذلك من عايشهم حتى أصبح الإدمان عندهم ظاهرة عامة، وأضحت ندوات المُجَان من الشعراء من الانحلال والتهتك بحيث لم نشهد لها مثيلاً في تاريخ المجتمع الإسلامي لا من قبل ولا من بعد، لقد كان هؤلاء يلتقطون في الأماكن العامة، ثم يحاول كل منهم أن يستأثر بالمجموعة في بيته أو بستانه حيث يخلعون العذر ويعاقرون من ضروب الشراب ويمارسون من أسباب الانحراف ما شاءت لهم طبيعتهم أن يمارسوا، فَيُقْدِمُ كُلُّ منهم على وصف ما سوف يُقْدِمُ لصاحبه من أنواع الإغراء غير الحلال، ويصوغ لهم ذلك كله في قالب من الشعر، ومن يبذل مغريات أكثر في شعر أملح يفوز بالعصبة؛ وكثيراً ما كانت بعض النساء الشاعرات الماجنات تشاركن في هذه الندوات، على أن هؤلاء

لم يكن من العرائر، وإنما كُنَّ على الأغلب من القيان وفي مقدمتهن القينة عنان جارية الناطفي.

فهذا الشاعر القراطيسي الكوفي صديق أبي نواس وأبي العتاهية، يدعو رفاقه من المَجَان إلى بيته، وها هو يغريهم بكل أسباب المحرمات:

ألا قسّموا بأْجَمِعُكُمْ
إلى بيت القراطيسي
فقد هِيَا لنا النَّزَل
غلامٌ فارِهٌ طُوسيٌّ
وأَلوانًا من الطِّيرِ
وأَلوانًا من العيسى
وقيناتٍ من الْحُورِ
كَمَثَالِ الطَّوَاوِيسِ
.....

واوضح أن البيت الأخير لم تستطع إدراجه لإباحيته.

ويورد أبو الفرج الأصفهاني من مجون هذه الجماعات، أن يحيى بن زياد ومجموعة من المَجَان اجتمعوا في بيت مطیع بن إیاس فشربوا أياماً تباعاً، فقال لهم يحيى ليلة من الليالي وهم سكارى: وبحكم، ما صلينا منذ ثلاثة أيام فقوموا بنا حتى نصلى، فقام مطیع فأذن وأقام، ثم قالوا: من يتقدم للإمام؟ فتدافعوا كل يريد أن يكون إماماً، فقال مطیع للمعنى تقدمي فصلی بنا، فتقدمت تصلي بهم وهي غير مؤذنة إلا بغاللة رقيقة، وبقية القصة نضرب عنها صفحأً لما

فيها من فحش ينكره إبليس نفسه. من يريد الإطلاع عليها كاملة فليرجع إلى كتاب الأغاني ١٣ / ٣٢٦.

وبلغ تمادي القوم المُجَان في عبئهم إلى المدى الذي جعلهم يتخدون من المسجد مكاناً لمجونهم وانحرافهم. ومجون القوم في أقوالهم وأشعارهم ومحالسهم لمما يعطي صورة كريهة عن مجتمع هؤلاء القوم الذي لم يكن عصرهم كله شرآ، بل كان إلى جانب ذلك عصر ثقافة وتأليف وبداية ثورة فكرية علمية إسلامية.

هـ - الرقيق والجواري والفناء: كثر الرقيق في العصر العباسى كثرة مفرطة بسبب كثرة أسرى العرب وانتشار تجارتة ورواجها، حتى كان في بغداد شارع خاص بتجارة الرقيق يُسمى شارع الرقيق، وكان يقوم عليه موظف يُسمى قيئم الرقيق.

وقد أولع الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد بالرقيق حتى قيل إن الرشيد سار يوماً وبين يديه أربعين ألفاً منهم، وشغف المعتصم أيضاً بالرقيق التركي خاصةً، حتى اجتمعوا له بالألاف وأضطر أن يبني لهم سرّاً من رأى كي يتجنب العامة شرهם وأذاهم. وكان يشيع بين هؤلاء الرقيق الخصيـان، حيث نجد أن القصور في بغداد وغيرها من بلدان العالم

الإسلامي تكتظ بهم. وكان رقيق النساء من الجواري أكثر عدداً من رقيق الرجال فقد زخرت بهن الدور والقصور، وكان الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر، لأنهن كُنَّ من أجناس مختلفة، ولربما لعب الحجاب عند المرأة الْحُرَّة دوراً في ذلك، فقد كان الرجل لا يرى من يريد الاقتران بها من الحرائر، أما الجواري فكُنَّ معروضات بدور النخاسة تحت سمعهم وبصرهم، فكانوا يختارون منها حسب رغباتهم وأهوائهم، وكانت الجواري والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثرن تأثيراً واسعاً في أبنائهن وأزواجهن ومحبيهن، وقد امتدت آثارهن إلى قصر الخلافة نفسه وأثرت به تأثيراً عميقاً، فقد كان أكثر الخلفاء العباسيين من أبنائهن، فالمنصور أمه حشية، والهادي والرشيد أمهما الخيزران رومية الأصل، والمأمون أمه مراجل فارسية، وكذلك كانت أم المعتصم ماردة فارسية أيضاً. وكانت أم الواشق رومية وتدعى قراتيس. وقد أخذ هؤلاء الجواري يكثرون في قصور الخلفاء منذ عهد المهدى وكان بينهن من يعلقون الصليب. واستكثر الرشيد وزوجته زبيدة من الجواري والإماء حتى قيل إنه كان عند كل منهما زهاء ألفي جارية في أحسن زيه من الثياب والجوهر، وكانت كل من سِحْرٍ وضياءٍ وخُنْثٍ من بينهن يشغلن قلب الرشيد وفيهن يقول بلسان

العباس بن الأحنف:

ملك ثلاث الآنسات عناني
وحللمن من قلبي بكل مكان
ما لي تطاوعني البرية كلها
وأطعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى
- وبه عزز - أعز من سلطاني

وكان قصر الأمين يزخر بالجواري الغلاميات اللاتي يلبسن
لبس الغلمان، وزخر قصر المأمون بالجواري المسيحيات،
كما زخر بهن وبغيرهن قصر المعتصم والواشق.

وكانت قصور الوزراء والأمراء والقواد ودور علية القوم
تمتليء بهن، وكان يغشى هذه الدور الشعراء، وكثيراً ما يقع
حب جارية في قلب شاعر ويصبح محبة لا يجد إلى التخلص
منها سبيلاً، وعلى هذا النحو كانت دور النخاسة^(١) والقيان
معارض للجمال، وهي معارض مفتوحة ليلاً ونهاراً يجتمع
فيها الفتيان من الشعراء وغيرهم يتملئن بالجمال ومفاتنه. وقد
يشتري الجارية منهم الخليفة أو أحد الوزراء أو الأمراء أو
القادة المشهورين، أو أحد العلية من أبناء البيوتات، فيظل

(١) دور بيع الجواري والقيان.

الشاعر متعلقاً بها، وتظل تملك عليه أمره، على نحو ما كانت تملك عتبة إحدى جواري قصر المهدى قلب أبي العتاهية، وجنان جارية الثقيفين قلب أبي نواس، وفوز جارية محمد بن المنصور فتي العسكر قلب شاعرنا العباس بن الأحنف.

وكانت كثيرات منهن يحظن بفنون القول والأدب، فكن يجمعن إلى جمالهن عذوبة الحديث، فيملكن على الشعراء وغيرهم قلوبهم وعقولهم، بل كان منهن من يتقنّ نظم الشعر مثل عنان جارية الناطفي، وسكن جارية محمود الوراق، وكان منهن من يضفن إلى ذلك إجاده العزف والغناء فكن فتنة من فتن العصر على نحو ما كانت عليه دنانير جارية البرامكة، ومتيم جارية علي بن هشام أحد قواد المأمون وغريب جارية الأمين والمأمون.

وكان للغناء في نفوس الناس في هذا العصر أثر أي أثر، فقد شغلوا به أي شغل، فكان نعيمهم من دنياهم الذي لا يؤثرون سواه لما يبعث في نفوسهم من غبطة وابتهاج، وقد انتقل فن الغناء من الحجاز إلى العراق في أواخر عصربني أمية، وقد نقله ابن رامي الكوفي فإنه استقدم مغنيات من الحجاز، وأقام داراً واسعةً يقصدها الناس. وما تقاد تنشأ بغداد ويطل عصر المهدى حتى تصبح بغداد داراً كبيرة

للغناء، وكان أول من أولع بالغناء من الخلفاء العباسيين الخليفة المهدى، واقتدى به الهادى، وخلفهما فيه الرشيد حيث جعل المغنيين مراتب وطبقات، وهو الذي طلب إلى ابراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفليح بن أبي العوراء أن يختاروا له الأصوات المائة التي أدار أبو الفرج الأصفهانى كتابه الأغاني عليها فيما بعد؛ وكان الأمين يعيش للسماع والقصف، وكان في المأمون وقار فامتنع عن السماع بعد قدومه من خراسان أربع سنوات، ثم أقبل عليه فملاً مجالسه بإسحاق الموصلى ومخارق وغيرهما، كما كان الواثق أشد كلفاً بالغناء لإنحسانه الضرب على آلاته وله فيه أصوات سجلها صاحب الأغاني.

وكان من أبرز المغنيين إبراهيم الموصلى، وابن جامع مغني الرشيد، ومنهم أيضاً مخارق وكان الناس يبكون لجمال غنائه ورقته، ومنهم علوية، الذي كان يقول فيه الخليفة الواثق: غناء علوية مثل نقر الطست يبقى في السمع ساعة بعد سكوته.

وكان أئبُّ المغنيين في العصر إسحاق الموصلى، الذي تلقى فن الغناء عن أبيه ابراهيم الموصلى، والضرب على العود عن زلزل، ويظهر أنه استطاع أن ينتقل بالغناء من حد التطريب إلى حد التعبير. وقد بلغ من رقي هذا الفن وارتفاع

شأنه أن أقبل الخلفاء وعلية القوم على تعلمه وإنقاذه . وأشهرهم في هذا ابراهيم بن المهدى وأخته علية ، وممن برع أيضاً في الغناء وأثرت عنه أصوات بديعة فيه هو عبد الله بن طاهر ، وأبو دلف العجلى قائد المؤمن المشهور . وقد أخذ هذا الغناء الذي ملا حياة الناس واستثار بقلوبهم يرفع من أثمان الجواري المسماة بالقيان اللاثي كُنَّ يتلقنه ، ويدلعن ناره في القلوب . وكان هناك أشبه بنوادٍ كبيرة للغناء والموسيقى ، يذهب الناس إليها شراء وغير شراء للمتعة بالسماع ورؤيه الجمال من كل شكل وكل لون ، وكثيراً ما كان يقع الشعراء في حب بعض الجواري المكتملات الخلقة الجميلات الجسد ، فيستأثرن بكل ما فيهم من عاطفة وهو . كما ان كثيرات من هؤلاء القيان والجواري كُنَّ يحسن الرقص ، ويظهر أن الرقص قد بلغ يومئذ حظاً واسعاً من الرقي ، وقد أشاع هؤلاء الجواري والقيان كثيراً من ضروب الرقة والظرف وكثرة معاشرة الرجال لهن جعلتهم يتعودون كيف يتلطفون ويستحوذون على قلوبهم وكيف يخطبون ودهن بالكلام الرقيق ، وكيف يحيطونهم بأشراك الحديث الساحر الذي يشغف قلوبهن ويملاًوها بالعاطف والحنان ، وكان لذلك أثره البالغ في الشعر والشعراء ، فقد شاع في كثير من معانيهم الرقة المفرطة والإشارة الدالة واللمحة المعبرة .

واقتربت بهذه المعطيات جميعها مظاهر كثيرة في الأزياء وفي العطور وأداب الطعام والسمر، ومن أهم مظاهره تهادي القوم بالأزهار والرياحين رامزين بأسمائها وأشكالها إلى معاني المودة والمحبة. وعلى هذا النحو كانت الجواري والقيان من العوامل الفعالة في انتشار الظرف والرققة في المجتمع العباسي حتى أصبحا سمتين بارزتين فيه، وبذلك رقت المشاعر والأحاسيس ودقت الأذواق وأرهفت إرهاقاً شديداً.

و - الزهد: ليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أن المجتمع العباسي كان مجتمعاً منحلاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا في طبقة محدودة من الناس كان جمهورها من الفرس، وكانت موجة المجون أكثر حدة ولكنها لم تكن عامة في المجتمع، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمعنىين، أما عامة الناس فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجونة، وإذا كانت حانات الكرخ ودور النخasse والمقينيين اكتظت بالجواري والإماء والقيان والمعنىين، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعباد والنساك وأهل التقوى والصلاح. ولا شك أن الغلو والتطرف في جانب من جوانب السلوك عند بعض الناس، يقابله غلو وتطرف عند الجانب الآخر منهم، لقد غالى

ال القوم في تلك الفترة واشتטוوا في طلب الدنيا، وبالغوا في طلب الملذات، وأسرفوا في الركض وراء الشهوات، ولم يقف الشيطان بهم عند ذلك الحد، بل اندفعوا إلى الزندقة والخروج عن ربيقة الإيمان، فكان من البداية أن يظهر تيار آخر على نقىض تيار اللذة المادية وطلب المتعة الجسدية والإقبال على الحياة، إنه تيار الزهد والابتعاد عن مباحث الحياة والدعوة إلى التحقيق من شأنها والتفكير في الموت والنظر إلى الحساب والعقاب والعودة إلى ينابيع التقوى والإيمان.

ومن العجب أن نرى أن الذين أقبلوا على الزهد وسعوا إليه وقالوا فيه شعرهم هم أنفسهم الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى مجتمعهم إثماً ومعصية وانحرافاً، هم بعض أولئك الذين انغمموا في طلب اللذة المحرمة حتى جرفهم تيارها وغمرهم عبابها.

وهكذا نجد في مقابلة اشتياط بعض القوم نحو الانحراف وانتهابهم اللذات اتجاهًا مغايرًا يهدم شعورهم باللذة وينذر بفناء الدنيا ويبشر بالأخرة، ويتخذ من الموت قارعاً ومنبهًا ومن الحشر والحساب والعقاب والثواب وسيلة لتنبيه الغافلين وتقرير اللاهين.

ز - ازدهار الشعر : كانت الbadia في هذا العصر لا تزال تمد الحاضرة بكثير من الشعراء ذوي السليقة العربية السليمة . وكان يقابلهم في المدن شعراء لم ينشأوا في الbadia ، ولكن السليقة العربية تحولت إليهم وتمثلت في دخائلكم ، حتى أصبحوا لا يقلون عن شعراء الbadia فصاحة وبياناً .

ويعود الفضل إلى علماء اللغة في تحول هذه السليقة إلى شعراء الحضر ، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلي والإسلامي ، ووضعوا لهم مقاييسهما وضعما دقيقاً .

وكان من بين هؤلاء اللغويين شعراء بارعون بادروا إلى الاحتذاء بما وضعوا فكانوا القدوة ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، حماد الرواية والخليل بن أحمد والخلف الأحمر والأصممي . ولم يعرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب ، بل لقد كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذج العوينة المليئة بالألفاظ الوحشية الغريبة ، ولم يكادوا يتربكون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلي أو إسلامي إلا سجلوها ودونوها وفسروها وشرحوها ، يحدوهم إلى ذلك عاملان ، عامل ديني حتى لا تستغلق دلالة القرآن والحديث النبوى على أفهم الناس ، وعامل سياسى ، فإن خلفاء بنى العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وحثوا العلماء على

مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار.

وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من أمثال الكسائي والأصمسي، فكان لا بد للشعراء من الحرص على أن ينالوا استحسانهم وأن يرى الخلفاء ذلك منهم فيجزلون لهم في العطاء. وبذلك أصبح اللغويون سدنة الشعر في هذا العصر وحراسه، وهم قضااته وصيارفته، وعل هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الشعر في العصر العباسى، وقد مضوا يتمسكون بالمثل الشعري القديم تمسكاً شديداً، وقد رأوا أن اشعار المحدثين مثل الريحان يُشم يوماً ويذوى فيرمى به، وأن اشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً.

كان الشاعر العباسى يحول إلى نفسه نماذج الشعر القديم بكل خصائصها وكل اشاراتها، يعينه في ذلك اللغويون بما يعرضون عليه منها. ولعلنا لا نغالى إذا قلنا إن اللغويين قد هبوا للشاعر العباسى من العلم بالشعر القديم ما لم يتهيأ لأصحابه أنفسهم، فقد جمعوه له وكشفوا مادته من جميع أطرافها فأخذت تورق وتزدهر من جديد، ومن هذا الازدهار نفذ العباسيون إلى أسلوب لهم حديث عُرف باسم أسلوب المولددين، وهو أسلوب قام على عِتَادٍ من القديم وعُدَّةٍ من

الذوق الحضري الجديد، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية وال نحوية ويُلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة بحيث تُنفي عنه ألفاظ العامة المبتذلة كما تُنفي عنه ألفاظ البدو الوحشية. فقد تناول اللغة في الحاضرة صُنَاعَ مهرة لم يلبثوا أن اشتقو لهم منها أسلوباً متميزاً يبتعد عن خشونة البدو وألفاظهم الكَرَّة. وأشاروا في أسلوبهم الألفاظ المختارة مع العذوبة والرشاقة حيناً والجزالة والرصانة حيناً آخر، يهدى لهم في ذلك ذوقهم المتحضر الدَّمْث الذي ينفر من كل لفظة غريبة وكلمة وعرة.

وعلى هذا النحو دفع التحضر شعراء العصر العبسي إلى استحداث أسلوب مُولَّدٌ جديد، وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الراخنة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الراخنة بالكلمات المبتذلة، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال، تختار فيه الكلمات وكأنما هي جواهر تختار في عقود، وكل واحد من الشعراء يحاول أن يُثبت مهارته في صياغته وسبكه بما يتتخب من الكلمات التي يحسن وقها في السمع والتي تصنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة.

ح - التطور العقلي : رقيت الحياة العقلية في هذا العصر رقىً بعيداً، رقيَّ هيات له الكتب الكثيرة التي ترجمت عن الهند

والفرس واليونان، كما هيأت له المحاورات والمناظرات بين أصحاب الملل والنحل والأهواء، وهي مناظرات ومحاورات دفعت الشعراء، كما دفعت غيرهم إلى التفكير المتصل الذي لا يُثنى عَزْمَ صاحبه عن المعاورة والمناظرة، متناولاً كل شيء حتى يصْلُّ عقله، وحتى يبلغ أقصى ما يريد من العلم والمعرفة. ولم يكن الشاعر العباسي يلتمس المعرفة عند العلماء ولقائهم وسعيه لسؤالهم وإلحاحه في السؤال فحسب، بل كان يلتمسها أيضاً في الكتب المترجمة من كل صنف، وكان تأثير الثقافة الفارسية في الشعر والشعراء أشد وأقوى من تأثير الثقافة الهندية، إذ كان كثير من الشعراء يتقنون اللغة الفهلوية، وقد نُقلت أمثال بزرجمهر الوزير والحكيم الفارسي إلى العربية ودارت في كتب الأدب، وتمثل الشعراء كثيراً من معانيها البديعة، ويقال إنه كان في ديوان صالح بن عبد القدوس ألف مثل للعجم. كما كان للثقافة اليونانية تأثيرها في الشعر والشعراء أعمق وأبعد غوراً، بما فتحت أمامهم من أبواب الفكر الفلسفية وأبواب المنطق ومقاييسه وأدلةه، وما بعثت فيهم من محاولة استكشاف دفائن المعاني واستخراج رقائقها. وقد مضى كثير من الشعراء يزيدون محصولهم من تلك الثقافة، بل كان منهم من ^{الف} ألف في المنطق حتى يشحذ ذهنه وأذهان الشعراء من حوله. وكان

مما تُرجم لهم من تلك الثقافة مراتي فلاسفة اليونان للإسكندر المقدوني عند وفاته، وقد نقل منها أبو العتاهية أطرافاً إلى مراتيه في صديقه علي بن ثابت. كما أن كثيراً من أقوال المسيح عليه السلام في الأنجليل نُقل إلى العربية وتداوله الوعاظ في وعظهم، كما تداوله شعراء الزهد، واستوحوه في كثير من أشعارهم.

ولعل أكبر بيئة اُعنيت بهذه الثقافات المتنوعة، وكان لعニアتها بها أثر واسع في الشعر والشعراء، هي بيئة المعزلة إذ كانت تقوم من الفكر مقام السكان^(١) والمجداف من السفينة، فقد عملت على إثارته ودفعه إلى المزيد من التحصيل من جميع المعارف والمعتقدات التي كانت سائدة في ذلك العصر، وأن يمثلها^(٢) إلى أبعد حد ممكن.

ط - التجديد في الموضوعات القديمة: ظل الشعراء العباسيون ينظمون في الموضوعات القديمة من المدح وغيره مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون، وبذلك أبقوا للشعر العربي شخصيته الموروثة، وراحوا يوافقون بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المتحضررة المرهفة، فإذا

(١) دقة السفينة التي بواسطتها تقاد.

(٢) يستوعبها ويفهمها.

هي تتجدد من جمیع وجوهها تجددًا لا یقوم على التفاصیل
بین هذه الم الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة، بل یقوم
على التواصل الوثيق فيما بینها.

معروف أن الشاعر الجاهلي والإسلامي كان یرسم في
مدحه المثالیة الخلقیة الرفیعة التي تقدّرها الجماعة،
وبذلك ظلت المدحّة تبُث في الأمة التربیة الخلقیة القویمة
حافظة لها على الفضائل والمکارم الرشیدة، وقد اضطررت
غایات المدح في العصر العباسی، إذ نرى الشعراء یعیدون
ویبدأون في تصویر هذه المثل فیخرجونها صوراً حیة ناطقة،
ویکاد یعدو الحصر ما ابتدعوه من معانٍ طریفة في السماحة
والکرم والحلم والحزن والمرءة والغففة والشرف وعلو الهمة
والشجاعة والبأس، وقد جسموها في المدح تجسیماً قویاً،
حتى تصبح کأنها تماثیل قائمة نصب أعين الناس کي
یحتذوها ویتخدوها رمزاً ومثلاً یحوزوا من خلالها لأنفسهم
مجامع الحمد والثناء. وقد مضى الشعراء العباسيون في
مدح الخلفاء والولاة یضيفون إلى هذه المثالیة مثالیة الحکم
وما ینبغی أن یقوم عليه من التقييد بـدستور الشریعة السمححة
وتقوی الله والعدالة التي لا تصلح حیة الأمة بدونها، وبذلك
كانوا صوتاً مُدوّيناً قویاً لم یتوان عن الھتاف في آذان الحکام
بما ینبغی أن یكونوا عليه في سلوكهم وسياستهم تجاه

رعيتهم . وقد يكون الحاكم سبيلاً للسلوك . ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية ، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو ، وإنما يمدحونه ك الخليفة للمسلمين وموضع آمالهم ، وكأنما أرادوا بذلك أن يرفعوا أمام عينيه الشعارات التي تتطلبها الأمة في خليفتها ورعايتها ، لعله يثوب إلى طريق الرشاد ، وقد نمت من هذا المديع فروع الشعر السياسي ، الذي يقف فيه الشاعر مدافعاً عن حق حزب من الأحزاب في الحكم والخلافة ، ولم يصور الشعراء العباسيون مثاليتنا الخلقيّة العامة في مدائهم ومثاليتنا السياسية فحسب ، بل صوروا أيضاً الأحداث التي وقعت في عصور الخلفاء ، وبخاصة الفتنة والثورات وحرروب أعداء الدولة العباسية من روم وترك ، وبذلك قامت قصيدة المديع في هذا العصر مقام الصحافة في زماننا هذا ، فكانت سجلاً للأحداث التي عاصرها الشاعر والأعمال الكبرى التي ينهض بها الخلفاء ، مما يعطيها قيمة بعيدة إذ تصبح وثائق تاريخية إلى جانب كونها قطعة أدبية . وبذلك أعدوا من بعض الوجوه ليتحول المديع إلى تاريخ ، وكانت المدحاة قدّيماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتاً ما يركبه من بعير أو ناقة أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشي ، وقد يعرض لوصف مشهد صيد ، وكثيراً

ما كان يضمنها حكماً توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة. وكل هذه الأمور استبقها الشاعر العباسي في مدحته مع إضافات كثيرة، حتى يلائم بينها وبين عصره. وقد تتسع الإضافة أحياناً وقد تضيق أحياناً، ولكنها كانت دائماً تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسي. وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى القصور العاصرة المأنيولة، كما تحول الشاعر العباسي في أحيان كثيرة عن وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها إلى وصف الرياض في الحاضرة ومناظرها البهيجـة في فـصل الربيع، واتخذوا أحياناً من وصف السفن ورحلتها في الأنهر صورة مقابلة لرحلة البعير في الصحراء، وجعلتهم موجة المجنون الحادة المتفسية في عصرهم يصفون في مقدمات مدائـهم الخمر أحياناً، وعنوا على نحو ما يعني به الشاعر القديم بـيتـ الحـكمـ في قصائـدهـمـ، وكان قد ترجمـ الكـثيرـ منـ الحـكمـ الفـارـسـيـ وـالـهـنـدـيـ وـالـيـونـانـيـ، فأفادـواـ منـ ذـلـكـ كلـهـ وـنـتـرـوـهـ فيـ تـضـاعـيفـ مـدائـهمـ، مـضـيـفـينـ إـلـيـهـ كـثـيرـاـ منـ تـأـملـاتـهـ فـيـ الـحـيـاةـ وـالـطـبـاعـ.

وكذلك فعلوا بالهجاء فجاءت معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها في المديح، لأن فن الهجاء كان يتصل بحياة الشعب وال العامة اتصالاً أدق من اتصال المديح الذي كاد أن

يكون وقفًا على طبقة معينة لا يتعداها. وهذه الحياة الجديدة لم يعد أساسها العصبيات القبلية كما كان الشأن في العصر الأموي، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض. ولكن إذا كان فن النقائض قد ضعف، فإن فن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء، وقد عَمِّتْ فيه روح جديدة حتى ليخيل إلى الإنسان أن أصحاب هذا الفن لم يتركوا مثلبة^(١) خلقية أو نفسية في شخص إلا صوروها، وكأنما كان هدفهم من ذلك أن يطهروا المجتمع منها، ولم يتورعوا أحياناً عن هجاء الخلفاء والوزراء، وبذلك يصبح الهجاء الصحفية التربوية المقابلة للمديح، فالмедиح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية، والهجاء يرسم المساواة الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع الرشيد.

وظللت للفخر حيويته القديمة، وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلي على أن أسراباً بقيت منه عند نفر من الشعراء.

ونشط الشعراء في الرياثة نشاطاً واسعاً، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا أبنوه تأيناً رائعاً. ومع أن رثاءهم لهم يفيض بالحزن اللوعة والأسى، إلا أنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد البطولة تمجيداً يضرم الحمية في

(١) عيباً.

نفوس الشباب للدفاع عن النحى حتى الموت. وظهرت ضروب جديدة في الرثاء لم تكن معروفة من قبل، من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق. ومن ضروب الرثاء الجديدة مراثي الطير الصادح من مثل القمرى والحيوانات المستأنسة والرياض والبساتين.

وقد أكثر الشعراء في هذا العصر من العتاب والاعتذار، متخذين لهما مسالك دقيقة تدل أوضاع الدلالة على رهافة الحس وخصب الذهن.

ولعل الشاعر العباسى لم يُعنَ بموضوع قديم كما عنى بموضوع الغزل وتصوير عاطفة الحب الإنسانية التي كانت تتحقق بأغانيها العيدان والطناير والدفوف والمعازف مُختلطة بأصوات المغنيات والمعنىين على جميع صور الإيقاعات صباح مساء، كما شاع أيضاً الغزل الإباحي والغزل الماجن وبلغ من حِدَّته أن شاعر الغزل الشاذ بالغلمان، على أنه سرعان ما ظهر شاعر تخصص بالغزل العفيف واشتهر به وهو شاعرنا العباس بن الأحنف.

كما انتشر في هذا العصر أيضاً شعر الزهد، وكان أكثر اتصالاً بحياة الجماهير من شعر الخمر والمجون، فإنها لم تكن تعرف ترفاً ولا ما يشبه الترف، وكانت تعيش حياة دينية

مستقيمة يشيع في بعض جوانبها النسك والعبادة، وقد أخذت تظهر تباشير التصوف.

يـ-مـوـضـوعـاتـ جـديـدةـ: رـأـيـناـمـوـضـوعـاتـ الشـعـرـ الـقـدـيـمـةـ تـجـددـ تـجـددـاـ وـاسـعـاـ فـيـ مـعـانـيـهـاـ، فـقـدـ أـخـذـتـ تـعـرـضـ بـصـورـةـ أـدـقـ وـأـعـقـمـ، وـأـخـذـتـ تـدـخـلـ عـلـيـهـاـ إـضـافـاتـ كـثـيرـةـ. وـلـمـ يـقـفـ الشـاعـرـ العـبـاسـيـ عـنـ ذـلـكـ الحـدـ فـقـدـ أـخـذـ يـُنـمـيـ بـعـضـ جـوـانـبـ هـذـاـ الشـعـرـ حـتـىـ أـخـرـجـ مـنـهـ فـرـوـعـاـ جـدـيـدـةـ كـثـيرـةـ. وـأـولـهـاـ مـثـالـيـةـ الشـيـمـ الـعـرـبـيـةـ الرـفـيـعـةـ، فـقـدـ تـنـاـولـواـ هـذـهـ الشـيـمـ، وـأـخـذـوـاـ يـفـرـدـونـهـاـ بـمـقـطـوـعـاتـ أوـ قـصـائـدـ، قـطـعـةـ تـصـورـ الـكـرـمـ، وـقـطـعـةـ تـصـورـ الـعـلـمـ، وـقـطـعـةـ تـصـورـ الـحـيـاءـ، وـقـطـعـةـ تـصـورـ الـعـفـةـ، وـقـطـعـةـ تـصـورـ الـصـبـرـ وـالـتـنـفـيرـ مـنـ الـيـأسـ. وـوـسـعـوـاـ أـيـضـاـ مـعـانـيـ الـهـجـاءـ وـمـاـ فـيـهـ مـنـ أـخـلـاقـ مـذـمـوـمـةـ، فـتـنـاـولـهـاـ هـيـ الـأـخـرـىـ بـالـبـسـطـ وـالـتـفـصـيلـ مـنـفـصـلـةـ عـنـ أـشـعـارـ الـهـجـاءـ. وـقـدـ وـقـفـواـ طـوـيـلـاـ عـنـدـ وـاجـبـاتـ الـأـخـوـةـ وـالـصـدـاقـةـ وـاـخـتـيـارـ الـأـخـوـانـ وـالـأـصـدـقـاءـ وـسـبـرـ أـخـلـاقـهـمـ قـبـلـ اـصـطـفـائـهـمـ. وـعـدـلـ الشـاعـرـ العـبـاسـيـ أـحيـاناـ عـنـ وـصـفـ الـأـطـلـالـ إـلـىـ وـصـفـ الـقـصـورـ، وـرـبـماـ تـرـكـ اـطـلـالـ نـجـدـ إـلـىـ اـطـلـالـ بـعـضـ هـذـهـ الـقـصـورـ فـيـ الـحـاضـرـةـ وـخـصـهـاـ بـمـقـطـوـعـاتـ مـفـرـدـةـ. وـهـذـاـ الـمـوـضـوعـ الـجـدـيدـ هـوـ الـذـيـ أـلـهـمـ الـبـحـتـرـيـ فـيـمـاـ بـعـدـ سـيـنـيـتـهـ الـمـشـهـورـةـ فـيـ وـصـفـ إـيـوـانـ كـسـرـىـ. وـقـدـ دـفـعـ الـحـنـينـ الـذـيـ صـحـبـ وـصـفـ الـأـطـلـالـ

الشاعر العباسي في بعض مدائنه إلى بَثْ حنين مقابل.
حنين لوطنه ولبلده حين ينأى عنه ويُشط به المزار وتظل روحه
ملتصقة به ، والجديد بالأمر انه أفرد لهذا الحنين خاصةً قطعاً
بديعة لا يتجاوزها إلى غيرها .

وكان الشاعر العباسي يحتفظ أحياناً في مقدمات مدائنه
بوصف الصحراء وأحياناً يتركها إلى وصف الطبيعة في
الحاضرة ببساطتها ورياحينها ، وقد أخذ يخص هذه الطبيعة
بمقطوعات وقصائد كثيرة ، بحيث جعل منه موضوعاً واسعاً
جديداً ، كما كان يمزج نشوته بالطبيعة في بعض الأحيان
بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع القيان ، وفي كثير من
الأحيان كان يقف عند تصوير فتنته بها وبورودها ورياحينها .
وقد أكثروا من وصف الامطار والسحب ، كما أكثروا من
وصف الرياض خاصةً في الربيع ، وعبروا عن أحاسيسهم
ومشاعرهم خلال هذا الوصف ، مما جعلهم يخاطبون
عناصرها وكأنها بَشَّرَ تحمل عواطف الإنسان ويصيّها ما
يصيّه من ريب الزمان .

ونرى شعراء كُثر يعنون بوصف مظاهر الحضارة العباسية
المادية وما يتصل بها من الترف في الطعام والتائق في
الملابس ، ووصف القصور وما حولها من البساتين وما يجري
فيها من الظباء والغزلان . كما أكثروا من وصف الحيوان

والطير والحشرات. وعلى هذا النحو تحول الشاعر العباسي من وصف الشاعر القديم للصحراء وحيوانها إلى وصف بيته بجميع مظاهرها وعنانصرها، وقد وصف وصفاً دقيقاً الامراض والأفات التي انتابته، كما ظهر في شعرهم الشكوى من الزمن ونوازله ومن الدهر وهمومه، وخاصة عندما ساءت أحوال المجتمع وانعكست أصوات ذلك على نفسيات الشعراء وبالتالي على أشعارهم؛ وتوسع الشعراء بمراثيهم حتى شملوا بها الطير والحيوان والبساتين والمدن، ولعل منهم من كان يبكي في مقدمات مدائنه أحياناً الشباب في بيت أو أبيات قليلة. وسرعان ما استقلت القصائد بهذا الموضوع. ومما استحدثوه أيضاً من المراثي محللين مشاعرهم تحليلأً دقيقاً بكاؤهم نور البصر حين يخبو؛ ومن ذلك التعاطف الرقيق بين الأب وبنيه وبناته وما يطوي فيه من الرحمة والبر والحنان. وكذلك شعور الزوج بالغيرة الشديدة على زوجته وما يجر ذلك عليهم من البلاء. كما صوروا تصويراً دقيقاً حياة المؤس والمسغبة^(١) التي كان يرزح تحت أثقالها جماهير الشعب.

وكانت مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء تعنى بالنواادر والفكاهات، مما هيأ ذلك لشروع روح الدعاية والهزل في

(١) شدة الجوع.

بعض المقطوعات والقصائد. ولعلهم لم يكثروا من التندر على شيء كما أكثروا من التندير على اللّحن، وكان كثيراً من أهل الوقار يطيلونها ويُعرّضونها، فتندر عليهم الشعراء طويلاً.

وفن الشعر التعليمي فن استحدثه الشعراء العباسيون، ولم تكن له أيُّ أصول قديمة، هذا الفن من الشعر الذي دفع إليه رقي الحياة العقلية في هذا العصر، فإذا نفر من الشعراء ينظمون بعض القصص أو بعض المعرف أو بعض السير والأخبار.

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور النشاط العقلي والفنى للشاعر العباسي وكيف كان يحرص على التجديد، فهو يشتغل من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده، ولا يكتفى بها، بل ما زال يكتشف موضوعات أخرى، تلهمه بها بيته الحضارية وحياته العقلية الراقية، ولم يلبث أن اهتدى إلى الشعر التعليمي، فسجل فيه كثيراً من القصص والتاريخ والدين والعلم والحكمة.

كـ- التجديد في الأوزان والقوافي: أثر الغناء المستحدث في هذا العصر في موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نظم المقطوعات القصيرة في الغزل وأخذ الشعراء يُصنفون

موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة . ومضى شعراء الغزل يُعدلون في أغلب الأحيان عن النظم في الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم في الأوزان الخفيفة البسيطة ، فإن نظموا بالأوزان الطويلة جزءوها غالباً حتى تحمل ما يريد المغني أو المغنية من أنقام مجهرة أو مهموسة ، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الزحافات إكثاراً نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتث وصنع بعض مقطوعاته فيه .

وانتقلت موجة هذا الغناء في أواخر العصر الأموي إلى الكوفة ، حتى إذا كان العصر العباسي الأول بلغت في مدن العراق كلَّ ما كان يُتَّنْظَرُ لها من حدة وقوة ، فمن جهةٍ صُفِيت لغة الشعر وبلغت كلَّ ما يمكن من رشاقة وعدوية ونعومة ، ومن جهةٍ ثانية اتسعت الملامات الموسيقية العروضية مع الغناء ، فإذا بالقصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمي . لا وهو شعر المدح والرثاء ، بينما تشيع المقطوعات في الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم . ومضى الشعراء ينظمون في الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفي وزن المجتث الذي استكشفه الوليد بن يزيد ، كما كثرت المنظومات من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكامل والرمل أو من الهجز أو من المجتث .

ولم يلبث الشاعر العباسي أن حاول النفاذ إلى أوزان جديدة، وإذا به يكتشف وزنين هما المضارع والمقتضب، ومن الواضح أن المقتضب أكمل نغماً وإيقاعاً من المضارع، وهذا ما جعله يشيع ويتداوله الشعراء؛ واكتشف الشاعر العباسي أيضاً وزن المتدارك أو الخبب؛ والحق يُقال إن الخليل بن أحمد اكتشف للشعراء أوزاناً جديدة كثيرة لم يستخدمها أسلافهم وذلك أنه استضاء بفكرة التبادل والتوافق الرياضية في وضع عروض الشعر، إذ جعل أوزانه تدور في خمس دوائر أو بعبارة أدق تدور أجزاؤها من الأسباب والأوتاد، فإذا هو يحصي الأوزان التي استخدمها العرب وأضعوا لها ألقابها ويستبسط أوزاناً أخرى مهملة لم يستخدموها في أشعارهم، كي ينفذ منها الشاعر العباسي إلى ما يريد من تجديد في أوزان الشعر وبحوره. وينسب إلى هذا العصر أيضاً وزن شعبي هو وزن «المواليا» التي لم تبدأ أولاً عامية ملحونة، وإنما بدأت فصيحة، ثم تحولت إلى العامية.

وكما جدّدوا في الأوزان جدّدوا أيضاً في القوافي مستحدثين ما سموه باسم المزدوج والمسمّطات، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن المزدوج هو الذي رشح لظهور الرباعيات في الأدبين العربي والفارسي؛ والمسمّطات قصائد تتالف من أدوار، وكل دور يتربّك من أربعة شطور أو أكثر، وهي قريبة

الشبيه بالموشحات من حيث الأدوار والمراکز أو الأفعال. هذه المoshحات التي شاعت في الأندلس فيما بعد على يد مقدم بن معافى القبري شاعر الأمير عبد الله بن محمد المروانى (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) والتي سكب الوشاحون فيها من الأنغام ما يمتع الاسماع ويشرح الأفئدة.

لـ-شعراء الغزل : كثرة الغزل في هذا العصر كثرة مفرطة، حتى ليتمكن أن يقال إن جميع الشعراء عنوا بالنظم فيه عنايةً أعدّته لكي يزدهر ازدهاراً واسعاً، إذ تداوله أفذاد الشعراء، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة، وما أوتوه من قدرة على التوليد في المعانى القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة.

وقد مضى الغزل يجري في نفس التيارين اللذين اندفع فيما منذ عصر بنى أمية، ونقصد تيار الغزل الإباحي الصريح ، والغزل العذري العفيف، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفاً؛ وحتى ان الغزل العذري في العصر العباسى الأول قد أخذ يضيق مجراه، لأنه لا يبلغ من التأثير في النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف في العصر الأموي ، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن، فإذا هو يجري فيه التكلف ولا يكاد يؤثر في العاطفة والشعور إلا قليلاً.

على أن شعراء هذا العصر استخرجوا كثيراً من دفائن المعاني في غزلهم، فقد كان عقلهم خصباً قادرًا على تشعيّب المعاني وتحليلها واستنباط الكثير من دقائقها. كما أن شعرهم يصور أيضًا حسهم المترف الدقيق وشعورهم المرهف الرقيق، وعباراتهم اللينة، ومرد كل ذلك إلى حياتهم المتحضرة وأنهم كانوا يتوجهون بأكثر غزلهم إلى الجواري المغنيات المتحضرات، فكانوا يختارون لهن اللفظ السهل البسيط الذي يلمس القلوب لمساً بدون أي حاجزٍ أو حجاب، وإن كثيراً منهم كنَّ مثقفات يُحسنُ صوغ الشعر ونظمه. وقد أشاع هؤلاء الجواري الشواعر كثيراً من الظرف والرقّة في الغزل العباسى. كل ذلك عمل على ازدهار الغزل في هذا العصر ازدهاراً واسعاً لذا، فنجن نقف عند شاعر من شعرائه من أصحاب الغزل العفيف وهو العباس بن الأحنف.

العباس بن الأحنف . . . - ١٩٢ هـ

هويته: أبو الفضل العباس بن الأحنف بن طلحة . . . بن عبد الله بن حنيفة، بغدادي عربي من بني حنيفة، كان آباءه يتزلون في خراسان، واتصلوا بالعباسيين، ولهم عمه حاجب بن قدامة الذي كان من كبار رجال الدولة، نشأ العباس وتربى في بغداد، ويظهر أنه نشأ في نعمة وثراء، جعلاه ينصرف عن شعر المديح ، الذي كان يجذب إليه عامة الشعراء طلباً للنوال والعطاء. وقد أخذ يعيش حياة متوفقة يختلط فيها بالشعراء، ولكن دون أن يتردّى في خلاعتهم ومجونهم. وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دونما تعمق ودونما إثم.

صفاته وأخلاقه: «كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه، وكان جواداً لا يُليق درهماً ولا يحبس ما يملك» هذا ما وصفه به ابن المعتز. ويقولون إنه كان فيه ظرف. وكأنه كان مثال العربي البغدادي المهدب في عصره الذي أخذ بأسباب الترف والنعيم أخذآً كان له أثره في ذوقه المصفى المهدب وشعوره

الرقيق المرهف. وقد مضى ينفق حياته في التغنى بعواطفه وحبه، وفي ذلك يقول أبو الفرج: «كان العباس شاعراً غزلاً طريفاً مطبوعاً... وله مذهب حسن ولديباجة شعره روتق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مدح ولا هجاء ولا يتصرف في شيء من هذه المعانٍ»، وقد قدمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على نظرائه وأطنب^(١) في وصفه. وقال: رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه، وقال أيضاً: كان العباس من الظرفاء، ولم يكن من الخلقاء، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً، وكان ظاهر النعمة ملوكي المذهب شديد الترف، وذلك بَيْن في شعره، وكان قصده الغزل وشغله النسب، وكان حلواً مقبولاً غزلاً غير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده، ولم يكن هجاء ولا مدحًا، وقد فتح اشتهره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه، حتى أصبح من ندامنه، وحتى صحبه في غزوته بأرمينية وأذربيجان.

وكان كما قال بعض من وصفه: «كان أحسن خلق الله إذا حدث حديثاً، وأحسنهم إذا حدث استماعاً، وأمسكهم عن ملاحة^(٢) إذا خولف، وكان ملوكي المذهب^(٣)، ظاهر

(١) أكثر عنه الكلام.

(٢) المجادلة الكلامية.

(٣) يعني حياة الملوك.

النعمـة^(١)، حـسن الـهـيـة، وـكـانـتـ فـيـهـ آـلـاتـ الـظـرـفـ، كـانـ
 جـمـيلـ الـوـجـهـ، فـارـهـ الـمـرـكـبـ، نـظـيفـ الثـوـبـ، حـسـنـ الـأـلـفـاظـ،
 كـثـيرـ الـنـوـادـرـ، رـطـيـبـ الـحـدـيـثـ، باـقـيـاـ عـلـىـ الشـرـابـ، كـثـيرـ
 الـمـسـاعـدـةـ، شـدـيدـ الـاحـتمـالـ، وـلـمـ يـكـنـ هـجـاءـ وـلـاـ مـدـاحـاـ، كـانـ
 يـتـنـزـهـ عـنـ ذـلـكـ، وـيـشـبـهـ مـنـ الـمـتـقـدـمـينـ بـعـمـرـ بـنـ أـبـيـ رـبـيـعـةـ».
 وـسـئـلـ أـبـوـ نـوـاـسـ عـنـ الـعـبـاسـ وـقـدـ ضـمـهـمـاـ مـجـلـسـ فـقـالـ: «هـوـ
 أـرـقـ مـنـ الـوـهـمـ، وـأـحـسـنـ مـنـ الـفـهـمـ». وـجـاءـ فـيـ كـتـابـ:
 «وفـيـاتـ الـأـعـيـانـ لـصـاحـبـهـ اـبـنـ خـلـكـانـ قـوـلـهـ: «أـبـوـ الـفـضـلـ
 الـعـبـاسـ بـنـ الـأـحـنـفـ الـشـاعـرـ الـمـشـهـورـ، كـانـ رـقـيقـ الـحـاشـيـةـ،
 لـطـيـفـ الـطـبـاعـ، جـمـيعـ شـعـرـهـ فـيـ الغـزلـ، لـاـ يـوـجـدـ فـيـ دـيـوـانـهـ
 مـدـيـعـ، وـمـنـ رـقـيقـ شـعـرـهـ قـوـلـهـ مـنـ جـمـلةـ قـصـيـدةـ:

يـاـ أـيـهـاـ الرـجـلـ الـمـعـذـبـ نـفـسـهـ
 أـقـصـرـ^(٢) فـإـنـ شـفـاءـكـ الـاقـصـارـ
 نـزـفـ الـبـكـاءـ دـمـوعـ عـيـنـكـ فـاستـعـرـ
 عـيـنـاـ يـعـيـنـكـ دـمـعـهاـ المـدـرـارـ
 مـنـ ذـاـ يـعـيـرـكـ عـيـنـهـ تـبـكـيـ بـهـاـ
 أـرـأـيـتـ عـيـنـاـ لـلـبـكـاءـ تـعـارـ

(١) صـاحـبـ مـالـ وـفـيرـ.

(٢) قـصـرـ عـنـ الـأـمـرـ: عـجـزـ وـكـفـ عـنـهـ.

وإن المتبع للعباس في ديوانه لا تكاد تقع عيناه إلا على الغزل الرقيق الذي تتنازعه مدرسة جميل بشينة حيناً^(١)، ومدرسة عمر بن أبي ربيعة حيناً آخر^(٢)، وإن لم تجر على لسانه عبارات الفجر وألفاظ الفحش التي كانت تجري على لسان عمر، ولعل العباس قد صدق في وصف نفسه حين قال:

أَتَأْذُنُونَ لِصَبَّ فِي زِيَارَتِكُمْ
فَعِنْدَكُمْ شَهْوَاتُ السَّمْعِ وَالبَصَرِ
لَا يُضْمِرُ السُّوءُ إِنْ طَالَ الْجُلوسُ بِهِ
عَفُّ الضَّمِيرِ وَلَكِنْ فَاسِقُ النَّظَرِ

وهو معنى جديد على الشعر، غريب على الشعراء بحيث علق عليه الأصمعي قائلاً: ما زال هذا الفتى يدخل يده في جرابه فلا يخرج شيئاً حتى أدخلها فأخرج هذا - أي هذا القول - وكان العباس بشمائله ورقه شعره وجودة وبساطة يده^(٣) محبوباً من مختلف طبقات مجتمعه ابتداءً من الرشيد وانتهاءً بجمهرة العامة.

(١) شاعر المدرسة العذرية العفيفة.

(٢) شاعر المدرسة الاباحية.

(٣) أي كرمة.

ولعل أحداً من الناس لم يحمل له موجدة^(١) إلا مسلم بن الوليد الشاعر الكبير، وليس هناك من سبب ظاهر حمل مسلماً على معاداة العباس ثم هجائه إلا أن العباس كان أثيراً^(٢) لدى الخليفة وكان في نفس الوقت متربعاً عن مدحه، بينما كان مسلم يقف على بابه يسكب في مدحه أرق الشعر وأعذبه ثم لا يظفر ببعض مكانة العباس، وربما كان ترف العباس وانتماوه إلى طبقة اجتماعية أغنى من طبقة مسلم السبب في حملة مسلم عليه وهجائه إياه. ولكن العباس ترفع عن هجاء مسلم أو الرد عليه لا قصوراً منه وهرباً، وإنما انسجاماً مع مبدئه فقد أخذ على نفسه عهداً لا يقول شعراً إلا غناءً يردد به ما يخالف فؤاده من حب، وما يشغل وجدهانه من عشق.

(١) حقداً وضغينة.

(٢) مفضلاً.

أخباره

العباس في مجلس الفضل بن الريبع : دخل الأصمعي يوماً على الفضل بن الريبع والعباس بن الأحنف بين يديه ؛ فقال العباس للفضل : دعني أعبث الأصمعي . قال : لا تفعل فليس المزاح من شأنه . قال الأصمعي : إن رأى الأمير أن يفعل . قال : ذاك إليك . قال الأصمعي : فلما دخلت قال لي العباس : يا أبا سعيد من الذي يقول :

إذا أَخْبَتَ أَنْ تَضَعُ . . . نَعْ شَيْئًا يُعْجِبُ النَّاسًا
فَصَوْرَهُنَا فِرْزاً وَصَوْرَهُمْ عَبْسًا
فَإِنْ لَمْ يَذْنُوا حَتَّىٰ تَرَى رَأْسَهُمَا رَاسًا
فَكَذَبْهَا بِمَا قَاتَتْ وَكَذَبْهُ بِمَا فَاسَ
فقال ابن أبي العلاء الشاعر للأصمعي : إنه أراد العبث بك وهو نبطي ، فأجبه على هذا . فأجابه الأصمعي على الفور : لا أعرف من قال هذا ولكنني أعرف الذي يقول :
إذا أَخْبَتَ أَنْ تُبْصِرَ شَيْئًا يُعْجِبُ الْخَلْقًا
فَصَوْرَهُنَا زُورًا وَصَوْرَهُمْ فُلْقًا
فَإِنْ لَمْ يَذْنُوا حَتَّىٰ تَرَى خَلْقَهُمَا خَلْقًا
فَكَذَبْهَا بِمَا لَاقَتْ وَكَذَبَهُ بِمَا يَلْقَى

فعرّض بالعباس أنه نبطي. فضحك الفضل، وووجه العباس، فقال له الفضل: قد كنتْ نهيتُك عنه فلم تقبل.

العباس وهارون الرشيد: كان هارون الرشيد يهوى جاريته ماردة^(١) هوئ شديداً، فتغاضباً مرةً ودام بينهما الغضب، فأمر جعفر البرمكي العباس بن الأحنف أن يعمل في ذلك شيئاً فعمل:

رَاجِع أَحِبَّتْكَ الَّذِينْ هَجَرْتَهُمْ
إِذْ الْمُتَّيْمُ قَلَّمَا يُتَجَنَّبُ
إِنَّ التَّجَانُبَ إِنْ تَطَاوَلْ مِنْكُمَا
دَبَ السَّلُوْلَ لَهُ فَعَزَّ الْمُطْلُبُ

وأمر ابراهيم الموصلي فغنى بهما، فلما سمعه الرشيد بادر إلى ماردة فترضاها، فسألت عن السبب في ذلك فقيل لها، فأمرت لكل واحد من العباس وإبراهيم عشرة آلاف درهم وأمرت الرشيد أن يكافئهما، فأمر لهم بأربعين ألف درهم.

وقيل إن العباس أنسد الرشيد يوماً قوله:

طَافَ الْهَوَى فِي عَبَادِ اللَّهِ كُلَّهُمْ
حَتَّى إِذَا قَرَّ بِي مِنْ دُونِهِمْ وَقَفَا

(١) وهي أم ولده المعتصم، فارسية الأصل.

فقال له الرشيد: ما الذي رأى فيك حتى وقف عليك؟
قال: سألني عن جود أمير المؤمنين فأخبرته، فاستحسن
الرشيد جوابه ووصله^(١).

وقيل إن الرشيد امتنع عليه النوم ذات ليلة فعمل في الليل
بيتاً من الشعر، ورام^(٢) أن يشفعه بأخر، فامتنع القول عليه،
فقال: عليٌ بالعباس، فلما طرِقَ عليه دُعْرٌ وَفَرَغَ أهله، فلما
وقف بين يدي الرشيد قال له: وجهت إليك بسبب بيت قلتُه،
ورمت أن أشفعه بمثله، فامتنع القول علىٌ، فقال: يا أمير
المؤمنين، دعني حتى ترجع إلىٌ نفسي^(٣) فإني تركت عيالي
على حال من القلق عظيمة، ونالني من الخوف ما يتتجاوز
الحد والوصف، فانتظر الرشيد هنئه ثم أنشده:

جسَانٌ قد رأيناها ولم نر مثلها بشرا
فقال العباس:

يزيدُك وجهها حسناً إذا ما زدتَ نظرا
فقال الرشيد زدني، فقال:

إذا ما الليل سال عليك بالظلم واعتakra

(١) كافاه.

(٢) أحب.

(٣) كناية عن شدة الخوف.

وَدَجُ^(١) فلم تر قمراً فابرزها ترى قمراً
فقال له الرشيد: قد ذعرناك^(٢)، وأفزعنا عيالك، وأقل
الواجب أن نعطيك هديتك، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

إسحاق الموصلي ينصح الفضل بن الريبع باستعمال قول
ابن الأحنف: حكى إسحاق بن ابراهيم الموصلي قال:
غضب الفضل بن الريبع^(٣) على جارية له، وكانت أحب
الناس إليه وتأخرت عن استرضائه فغمه^(٤) ذلك، فوجئ إلى
أبي يعلمه بالأمر ويشكته إليه. فكتب إليه أبي: لك العز
والشرف ولا عدائك الذل والرّغم؛ استعمل قول ابن الأحنف:

تَحْمَلُ عَظِيمَ الذَّنْبِ مَنْ تُجْبَهُ
وَإِنْ كُنْتَ مُظْلوماً فَقُلْ أَنَا ظَالِمٌ
فَإِنَّكَ إِلا تَغْفِرَ الذَّنْبَ فِي الْهُوَى
يُفَارِقُكَ مِنْ تَهْوِي وَأَنْفَكَ رَاغِمٌ

كيف آثره المأمون على غيره: وحكى عمر بن شبة قال:
مات ابراهيم الموصلي المعروف بالنديم سنة ثمان وثمانين
ومائة ١٨٨ هـ، ومات في ذلك اليوم الكسائي التحوي

(١) أظلم.

(٢) أخفاك.

(٣) وهو وزير الرشيد.

(٤) أحزنه.

المعروف، والعباس بن الأحنف، وهشيمة الخمارة، فرفع ذلك إلى الرشيد، فأمر المأمون أن يصلى عليهم فخرج نصفوا بين يديه فقال: من هذا الأول؟ فقالوا: ابراهيم الموصلي، فقال: أخروه وقدموا العباس بن الأحنف، فقدم فصلى عليه، فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك المخزاعي فقال: يا سيدى، كيف آثرت العباس بن الأحنف بالتقدمة على من حضر؟ فأنشد المأمون:

وسعى بها ناسٌ فقالوا: إنها
لهي التي تشقي بها وتكابدُ^(١)
فحصدتهم^(٢) ليكون غيرك ظنهم
إني ليعجبني المحبُ الجاجِدُ
ثم قال: أتحفظهما؟ قلتُ: نعم وأنشدته، فقال
المأمون: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة؟ قلتُ:
بلى والله يا سيدى.

العباس شاعر الحب والغزل: يعتبر العباس بن الأحنف شخصية فريدة بين شعراء عصره، ذلك أن طبيعة العصر قد جرفت الشعراء في تيارها العنف المصطروع الأمواج،

(١) تقاسي.

(٢) انكرتهم.

فتععددت لذلك جوانب القول وتشعبت ميادين الشعر عند الشاعر الواحد، من مدح وهجاء ورثاء وخمر وطبيعة، ومن قول الغزل في المرأة والغلام على حد سواء، إلا العباس بن الأحنف فإنه قد صد عن هذه الفنون جميعاً وترفع عنها وعاش للحب والغزل ليس إلا.

من الغريب حقاً أن يوجد شاعر كبير في مثل ذلك العصر ولا يتعدى بشعره حدود المرأة والطبيعة. فالأصفهاني يقول عنه إنه شاعر ظريف غزل مطبوع، له مذهب حسن ولمعانه عذوبة ورونق، لم يتجاوز الغزل إلى مدح أو هجاء، وهذا هو رأي جمهرة الذين ترجموا للعباس، إلا ان الخطيب البغدادي يقول عنه: إنه لم يقل في المدح والهجاء إلا شيئاً نزاراً.

وإن المتبع للعباس في ديوانه لا تكاد تقع عيناه إلا على الغزل الرقيق الذي تنازعه مدرسة جميل حيناً ومدرسة عمر بن أبي ربيعة حيناً آخر، وإن لم تجر على لسانه عبارات الفجور وألفاظ الفحش التي كانت تجري على لسان عمر كما أسلفنا.

إذن تفرد العباس بن الأحنف بين شعراء عصره في وقف شعره على الغزل دون سواه من فنون الشعر، ويمكنا القول إنه هو نفسه كان يعتمد إلى اتخاذ ذلك مسلكاً، والتزامه

منهجاً، غير مبال بأولئك الذين اتهموه بقصر البناء في الشعر لأنه لم يعدد القول في فنونه المختلفة حيث يقول:

لَحَوْنِي فِي الْقَرِيسِ فَقُلْتُ أَلْهُو

وَمَا مِنِي الْهَجَاءُ وَلَا السَّمْدِيْخُ

صَاحِبَاتِهِ: أما صاحباته اللاتي قال فيهن شعراً فهن من الكثرة بمكان، حتى إذا ألقينا نظرة على ديوانه استطعنا أن نعرف منهن: نسرين، ونرجس، وذلفاء، وضياء، وسحراء، وخُنث، ولكن أشهر صاحباته على الاطلاق اللتان استأثرتا بالقدر الأكبر والأرق من شعره فهما «فوز» و«ظلوم» ولسوف نقصر الحديث عليهما. رغم أن عاطفة الشاعر ربما توزعت في كثير من الأحيان على أكثر من واحدة. بل ربما كان قلبه يتوزع أحياناً بين ثلاثة في آن معاً حيث يقول:

إِنِّي وَدَعْتُ قَلْبًا طَائِعًا

بَيْنَ «سِحْرٍ» و«ضِيَاءً» و«خُنْثَ»

يَسْتَأْغِنُ الْهَوَى عَزْ ذِي هَوَى

آمِسَاتٍ عَهْدَهُ لَا يَنْتَكِثُ

وإذا «سِحْرٌ» أتَت زَائِرَةً

كَشَفْتُ رُؤْيَةً «سِحْرٌ» كُلَّ بَثٍ

وَابْنِفَسِي مِنْ حَبِيبٍ زَائِرٍ

غَيْر مَمْلُولٍ عَلَى طُولِ الْبَثِ

لقد قصر العباس فنه على الحب والشوق صدأً ووصلأً، وحنيناً وأنيناً، ولوحةً وشكوىً، ومكاتبة ولقاء، ووصفًا للحبية وولهاً بها، وفرحاً بلقائها وبكاءً على فراقها، وألمًا لرحيلها. وصف الشوق وطول الليل وامتناع النوم وطول الهجر، وغاصن إلى أعماق نفوس العاشقين والمحبين، وجاء بالصور الشعرية العديدة الغنية في مواقف العشق بحيث لم يكُد يصل إلى معانٍ شاعر آخر من شعراء الحب والجمال في أدبنا العربي ثراءً ووفرةً وتنوعاً وكثرةً.

العباس وفوز: ذهب الظن ببعض الدارسين إلى أن العباس لم يكن له غير صاحبة واحدة ذكرها في شعره بأسماء مختلفة. غير أن دارسين آخرين قالوا بتعدد المعشوقات اللاتي سلف ذكرهن، وإنما أصرروا على أن «فوز» هي نفسها ظلوم، ولعلهم استأنسوا في رأيهم هذا بالظروف المتشابهة والملابسات المتقاربة التي عاشتها كل من «فوز» و«ظلم» فكل منهما عاشت في بغداد، وكل منها وطئت قدماها أرض الحجاز، هذا فضلاً عن الشحنات العاطفية المتقاربة التي تضمنها شعر العباس في كل من المعشوقتين الفاتنتين.

بل يقال إن العباس لم يكن يجرؤ على ذكر اسم معشوقته الحقيقي والتي قال فيها ما يقرب من نصف شعره ألا وهي من

دعاهـا «فوزـآ»، وإنـما هو اسـم اختـاره عـلـى سـبـيل التـعـمية،
وأختـرـعـه عـلـى سـبـيل التـفـاؤـلـ، لأنـها تـنـتـمي إـلـى قـوم يـخـشـيـ
بـأـسـهـمـ فـيـما لـوـ صـرـحـ وـأـبـانـ، وـهـوـ يـصـرـحـ بـذـلـكـ فـي مـوـاطـنـ
كـثـيرـةـ مـنـ شـعـرـهـ لـعـلـ أـعـقـمـهـاـ أـثـرـآـ فـيـ النـفـسـ وـالـقـلـبـ وـالـوـجـدانـ
هـوـ هـذـاـ القـولـ المـوـسـوـمـ بـالـعـذـرـيـةـ، المـتـلـفـعـ بـالـتـوـسـلـ،
المـشـحـونـ بـالـشـكـوـىـ وـالـضـرـاعـةـ:

كـتـمـتـ اـسـمـهـاـ كـتـمـانـ مـنـ صـانـ عـرـضـهـ
وـحـادـرـ أـنـ يـغـشـوـ قـبـيـحـ التـسـمـعـ
فـسـمـيـتـهـاـ «فـوزـآ»ـ وـلـوـ بـخـتـ بـاسـمـهـاـ
لـسـمـيـتـ بـاسـمـ هـائـلـ الذـكـرـ أـشـعـ
فـواـحـسـرـتـيـ إـنـ نـخـتـ لـمـ تـقـضـ نـهـمـتـيـ
وـلـمـ يـغـنـ عـنـيـ طـوـلـ هـذـاـ التـضـرـعـ
وـهـبـتـ لـهـاـ نـفـسـيـ فـضـنـتـ بـوـضـلـهـاـ
فـيـ لـكـ مـنـ مـعـطـ وـمـنـ مـتـمـنـعـ
إـلـيـكـ - بـنـفـسـيـ أـنـتـ - أـشـكـوـ بـلـيـتـيـ
وـقـدـ دـقـتـ طـعـ المـوتـ لـسـوـلـ تـشـجـعـيـ
هـبـيـ لـيـ ذـمـيـ لـاـ تـقـتـلـيـنـيـ بـلـاـ ذـمـ
فـمـاـ يـسـتـجـلـ الـقـتـلـ أـهـلـ التـؤـرـعـ
وـتـعـلـقـ العـبـاسـ بـنـ الـأـحـنـفـ بـفـوزـ كـانـ مـنـ الصـبـابـةـ وـالـعـشـقـ
بـحـيـثـ مـلـكـ عـلـيـهـ مـجـامـعـ قـلـبـهـ، فـهـوـ يـتـرـجـعـ بـيـنـ الـيـأسـ

والرجاء، والسخط والرضا، والقنوط والأمل، وإنه في كل خطرة نفس وخفقة قلب ينزع إلى الشعر يفضي إليه بذات نفسه، ويشكو إليه استحالة وصله، وقد امتدت أسباب الصدود، وانقطعت حبال الرجاء، فيعمد إلى هذا القول الرقيق معنى ومبني وقافية وإيقاعاً:

إِنْ تَكُونِي مَلِلْتِ يَا «فُوز» وَصَلِي
وَتَنَاسِيْتِنِي وَعَهْدِكِ أَمْسِ
فَعَلِيكِ السَّلَامُ خَارِلِكِ الْأَ
هُ لِعَمْرِي لَا كَفِيْنِكِ نَفْسِي
سَوْفَ يَا «فُوز» تَنْدَمِينَ إِذَا جَرَّ
بُتِ غَيْرِي وَالدَّهْرُ يُسْلِي وَيُنْسِي

وشأن ابن الأحقف شأن كل العاشقين في كل زمان ومكان فهو يعز و هجر حبيبته إلى قول عزولٍ أو وشایة حاسد، فيبعث إليها بهذه الأنثىدة الرائعة مدافعاً فيها عن حبه، مترجمًا عن وجده، متضرعاً إليها ألا تأخذه بريبة قبل تبيّن أسباب الحقيقة، وهو هو يسطر أبياتاً من شعر العذريين الذي ندر وجوده في ذلك العصر:

وَإِنْ كُنْتِ قد بُلْغْتِ يَا «فُوز» باطِلًا
تُقُولَ عَنِي فَاسْمَعِي ثُمَّ عَاتِبِي

ولا تعجلني بالصرم^(١) حتى تَبَيَّنِي
 أقول مُحِقٌّ كان أم قول كاذب
 ... أريد لادعو غيرها فيجرني
 لسانى إليها باسمها كالْمُغَالِبِ
 يظل لسانى يشتكي الشوق والهوى
 وقلبي كذى حبس لقتل مُرَاقِبِ
 كأن بقلبي كلما هاج شوقة
 حرارات أقباسٍ تلُوح لراهمِ
 ولو كان قلبي يستطيع تَكَلِّماً
 لحدثُوكُمْ عَنِي بِكُلِّ الغَجَائِبِ
 كتبت فأكثرت الكتاب إليكُمْ
 على رَغْبَةِ حَتَّى لقد مَلَّ كاتبِي
 أما تتقين الله في قتل عاشقٍ
 صريحٍ نحيل الجسم كالخيط ذاتِ
 ولكن الحب ليس صدأ وحرمانا كله، ولا وصالاً جله،
 وإنما هو لقاء وجفاء، وصل وحرمان، رضى وسخط، مودة
 وخصام، هكذا الحب إنه متقلب تقلب عاطفة المحبين، لا
 يثبت على حال. وربما فترة افتتاح ووصل تمر بالعاشق،

(١) بالقطيعة.

فيكاد شاعرنا يطير فرحاً بجناحيه، وها هو يستبد به الغرور
فُيُظْهِر نفْسَه مَعْشوقاً أَكْثَر مِنْهُ عَاشقاً، ويصوّر شَخْصَه مَطْلوبًا
أَكْثَر مِمَّا هُوَ طَالِبٌ، وَتَسْتَبِدُ بِهِ النُّشُوة فِي قُولُه هَذِهِ الْأَبْيَاتِ التِّي
وَإِنْ كَانَتْ عَابِثَةً فِي مَوازِينِ الْعُشُقِ إِلَّا أَنَّهَا نَفِيسَةٌ فِي مَعَايِرِ
الفن رقيقة ناعمة في حلبة الشعر:

اليوم طَابَ الْهَوَى يَا مَعْشَرَ النَّاسِ
وَالْبِسْتُ «فُوزٌ» حُبِّي كُلُّ إِلْبَاسٍ
مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ يُمْنَاهَا مُعَطَّفَةً
عَلَى فُؤَادِي وَيُسْرَاهَا عَلَى رَاسِي
قالَتْ إِنْسَانٌ^(١) ماء العَيْنِ فِي لُجُجٍ^(٢) :
يَكَادُ يَنْطُقُ عَنْ كَرْبٍ وَوِسْوَاسٍ
يَطْفُو وَيَرْسُو غَرِيقاً مَا تُكْفِكُفُهُ
كَفٌ فِي الْكَ منْ طَافٍ وَمِنْ رَاسٍ
«عَبَاسٌ» لَيْتَكَ سِرْبَالِي عَلَى جَسَدِي
أَوْ لَيْتَنِي كُنْتُ سِرْبَالاً «لَعَبَاسٌ»
أَوْ لَيْتَهُ كَانَ لِي رَاحَأً وَكُنْتُ لَهُ
مِنْ ماء مُزْنٍ فَكُنْتُ الدَّهْرَ فِي كَاسٍ

(١) حدقَة العَيْنِ.

(٢) جمع لُجَّة وهي الماء الكثير.

أَوْ لَيْتَنَا طَائِرًا إِلَّا فِي بِمَهْمَمَةٍ^(١)
نَخْلُو جَمِيعًا وَلَا نَأْوِي إِلَى النَّاسِ

ويتشي الشاعر وتأخذه مسحة من غرور بأدبه وشعره، أو
لمحة من فخر بحسبه ووسامته فيستطرد قائلاً:

كُمْ مِنْ كَوَاعِبٍ مَا أَبْصَرْنَ خَطًّا يَدِي
إِلَّا تَشَهَّدُنَّ أَنْ يَأْكُلْنَ قِرْطَاسِي
لَوْ كُنْتُ بَعْضَ نَبَاتِ الْأَرْضِ مِنْ طَرَبِي
إِلَّهُو مَا كُنْتُ إِلَّا زَهْرَةَ الْأَسْ

ولكن هذه النفحة السعيدة لا تستمر طويلاً عند شاعرنا،
بل ان صروف الزمان وتغير الحدثان تكتب على العاشقين
فراقاً مريراً، طوله ما بين أرض العراق وأرض الحجاز من
مسافة أو بالأحرى ما بين بغداد والمدينة، فإن فوزاً كانت
حجازية النسب، مدينة المولد، سكن أهلها العراق لفترة من
الزمن، وكان مستقرهم بغداد حيث التقى بها العباس وعلق
قلبه حبها.

أما وإنه لا بد للغريب أن يعود، وللمسافر أن يؤوب، فقد
عادت فوز مع أهلها من حيث أنت، وربما زوجوها إلى
الحجاز. وهنا يستبد اليأس بالشاعر العاشق، وتعتلج في

(١) المفارزة البعيدة والبلد المقفر.

صدره آلام العشق والحنين ، وتلح على نفسه الشاعرة
المرهفة لواعج الحب والأسى ، ينظر حوله فيرى أن فوزاً وقد
أضحت في أرض غير أرضه ، وقطُرٌ غير قطره ، فيعلو صوته ،
وتتردد أنفاسه ، ويتضاعد أنيمه ، ولا يلبث أن يرسل شكواه
بهذه المناجاة التي لا تخلو على ما فيها من لوعة وحرقة من
كبراء حين يجعل من نفسه معشوقاً بقدر ما هو عاشق في
سياق هذه المعاني العذرية التي ييشها .

خَبِّرُونِي عن السِّجَارِ فِإِنِّي
لَا أَرَانِي أَمْلُ ذِكْرَ السِّجَارِ
إِنَّ فِي بَعْضِ مَا هُنَاكَ لَشَخْصًا
كَانَ يَسْفِي الْمَوْعِدَ بِالْإِنْجَازِ
تَلَكَ فَوْزٌ فَقَبَحَ اللَّهُ شِيخًا
- حَالٌ بَيْنِي وَبَيْنَهَا - بِالْمَخَازِي
وَتَمَنَّتْ لِقَائِي فَوْزٌ وَدُونِي
فَلَوْاتٌ تَحَارُ فِيهَا الْجَوَازِ^(١)
جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ فَوْزٍ وَعَبَّا
سِ فَعَاشَا فِي غِبْطَةٍ وَاعْتِزَازٍ
وَيَفِيضُ بِالْعَبَاسِ شَوْقَهُ ، وَتَنْضَجُ عَلَى حَرَارةِ الْعُشُقِ
صَبَابَتِهِ ، وَيَزِدَادُ إِلَى مَوْطِنِ أَحْبَبِهِ حَنِينَهُ ، وَيَنْظَرُ إِلَى أَمْسِهِ

(١) الإبل السريعة العدو.

حيث كان الشمل ملثماً في بغداد، ويتذكر في يومه فإذا
الجمع منشعب، واللقاء عصي ، فيقول:

أَضْبَحَ الْقُلْبُ بِالْعِرَاقِ وَأَمْسَى
بِالْحِجَازِ الْهَوِيِّ فَكِيفَ النَّعِيمُ
خَنْدَقْتُ حَوْلَ قَلْبِهِ بِالصَّبَابَا
تِ فَمَا حَوْلَهُ حَمَىٰ مَكْلُومٌ
إِنْ فِيمَا بَيْنَ الْبَقِيعِ وَبِطْحَا
نَ لَدَاراً فِيهَا الْهَوِيِّ مَكْتُومٌ

ولا يطيق العباس بعد ذلك صبراً، ولا يجد بداً من أن يرتحل إلى الحجاز علّه يتلقى بفوز، ويفكر بالأمر فلا يجد أنساب من الخروج في موسم الحجيج، فيشد الرحال، ويكون اللقاء والحروار والتشاكبي والسلوي، ويفضي كلّ إلى صاحبه بمكتون نفسه، ويثرم اللقاء بين العاشقين هذه الأبيات التي بدت روح جميل بن معمر في ثنايا كثير من أبياتها، لا بل تجاوز ذلك إلى عباراتها، وحروار عمر بن أبي ربعة في بنائها ونهايتها، إلا أنها مفعمة بأسباب الطهر، بعيدة عن معاني العهر الذي عُرِفَ به عمر، بل إنها اشتغلت على صنوف من فلسفة العشق، وحوت قوافل من معاني الحب وأنّات الصباية والغرام:

أَزَارَ أَبَا الْفَضْلِ الْخِيَالُ الْمُؤْرِقُ
 لِفُوزٍ؟ نَعَمْ، وَالظِّيفُ مِمَّا يُشَوِّقُ
 تَنَامُ عَيْنَ الْكَاشِحِينَ^(١) قَرِيرَةً
 وَغَيْنِي بِأَصْنَافِ الْبُكَاءِ تُؤَرِّقُ^(٢)
 فِيَا عَجَباً لِلْعَيْنِ! أَمَا رُقَادُهَا
 فَعَانِ وَأَمَا الدَّمْعُ مِنْهَا فَمُطْلَقُ
 وَمَا النَّاسُ إِلَّا الْعَاشُقُونَ ذُوو الْهَوَى
 وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُحِبُّ وَيَعْشَقُ
 عَجِبْتُ لِفُوزِ خَوْفَتِي بِبَيْنِهَا^(٣)
 وَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي مِنَ الْبَيْنِ مَشْفِقُ
 لَقَدْ سَعَدَ الْحَجَاجُ إِذْ كُنْتُ فِيهِمْ
 وَحْقَ لَهُمْ أَنْ يَسْعَدُوا وَيُوفَقُوا
 إِذَا لَمْتُهَا قَالْتُ: وَعَيْشِكَ إِنَّا
 حِرَاصُ وَلِكَنَا نَخَافُ وَنُشْفِقُ
 وَإِنْ كُنْتَ مُشْتَاقًا إِلَى أَنْ تَرْزُونَا
 فَنَحْنُ إِلَى مَا قُلْتَ مِنْ ذَاكَ أَشْوَقُ
 فَمَا أَنْسَ مِنِ الْأَشْيَاءِ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا
 أَلَا أَخْرُجْ بِلَا زَادٍ فِي أَنْكَ مُؤْبِقُ^(٤)

(١) العازل. (٢) لا تنام. (٣) بغرتها.

(٤) هالك.

وقد نَلَرْتُ إِنْ سَلَمَ اللَّهُ نَفْسَهَا
 وَنَفْسِي لَهَا شَهْرًا تَضُومُ وَتَعْتَقُ
 فَلَمَّا خَرَجْنَا اسْتَغْبَرْتُ وَتَنْفَسْتُ
 وَبِسَادَرْمَا دَمْعُ الْهَوَى يَتَرَفَّرَقُ
 وَيَحَاوِلُ الْعَبَاسُ أَنْ يَطْبِيلَ الْمَكْثَ عَلَى مَقْرَبَةِ دِيَارِ
 مَعْشُوقَتِهِ يَسْتَمْتَعُ بِأَنْغَامِ الْمَغْنِينَ فِي الْمَدِينَةِ وَيَسْتَمْتَعُ إِلَى
 الْأَلْحَانِ الْعَازِفِينَ فِي مَتَدِيَّاتِهِ، وَلَكِنْ رَوْعَةُ الْأَلْحَانِ الَّتِي أَغْرَقَ
 الْعَبَاسَ نَفْسَهُ فِي غُمَارِهَا وَالْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهَا لَمْ تَكُنْ لَتَسْرِيْ عَنْهُ
 وَتَخَفَّفَ مِنْ لَوْعَتِهِ وَأَشْجَانِهِ، وَإِنَّمَا بَرَاحَتْ تَشِيرُ لَدِيهِ لَوْاعِجُ
 الشُّوْقِ وَالْأَسْى وَتَلَهَّبَ عَنْهُ كَوَامِنَ الصِّبَابَةِ وَالْوَجْدِ، فَظَلَّ
 يَغْنِي وَيَنْشِدُ نَشِيدَ الطَّائِرِ الْعَاشِقِ الْحَزِينِ الْغَرِيبِ، يَنْاجِي
 فَوْزاً حِينَاً، وَيَتَضَرِّعُ إِلَى أَهْلِهَا أَحْيَانًا، يَتَشَهَّدُ رَاحَةُ النَّفْسِ
 وَالْفَؤَادُ لَدِيهِمْ، وَيَتَمْنَى الْمَوْتَ وَالثَّوَاءَ فِي دِيَارِهِمْ قَرِيبًا مِنْ
 يَحْبُّ، وَهَا هُوَ يَصُورُ حَشُودَ أَحَاسِيسِهِ فِي هَذِهِ الْأَبِيَّاتِ الرَّقِيقَةِ
 الْحَزِينَةِ :

بَكَيْتُ مِنْ طَرَبِ عَنْدِ السَّمَاعِ كَمَا
 يَبْكِي أَخْرُوْ غُصَصٍ مِنْ حُسْنِ تَذَكِّرِ
 وَصَاحِبِ الْعِشْقِ يَبْكِي عَنْدَ سَكْرَتِهِ
 إِذَا تَجَاوبَ صَوْتُ الْبَمْ وَالْزِيرِ^(۱)

(۱) آلتَانِ مُوسِيقِيَّاتِانِ.

يَا فَوْزُ يَفْدِيكِ خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ
 طَوْعًا وَكُرْهًا عَلَى صُغْرٍ وَتَضْغِيرٍ
 يَا فَوْزُ لَوْلَاكَ لَمْ أَنْفَكَ مِنْ طَرَبٍ
 آوَيْ إِلَى آنِسَاتٍ كَالْدُمَى حُورِ
 يَا فَوْزُ أَهْلُكَ لَامُونِي فَقَلْتُ لَهُمْ
 أَدْوَا فَوَادِي أَدْعُكُمْ غَيْرَ مَزْجُورِ
 يَا أَهْلَ فَوْزٍ أَمَالِي عَنْدَكُمْ فَرَجُ؟
 وَيْلِي ! وَلَا رَاحَةٌ مِنْ طَوْلِ تَعْزِيزِي
 يَا أَهْلَ فَوْزٍ ادْفَتُنِي بَيْنَ دُورِكُمْ
 نَفْسِي الْفَدَاءُ لِتَلْكَ الدُّورِ مِنْ دُورِ

نعم لقد أحب العباس فوزاً حباً ملك عليه نفسه وكيانه،
 حباً يُسِيرُ به في مسلك العذريين من المحبين قولأً ومعنى
 ورقه وإحساساً وإبداعاً، بحيث لو كنا لا نعرف أن للعباس
 صاحبات آخريات لما جال بخاطرنا إلا أنه واحد من رواد
 الموحدين في محارب الحب، وناسك من نساكه .

العباس وظلموم: وظلموم هي المرأة الثانية بعد فوز التي
 أوحى إلى العباس بن الأحلف الشطر الثاني من شعره
 العذري، هذا الشعر الذي حلق غريباً بعدريته في سماء
 العباسية المادية، والحق يُقال إن أمر هذا الرجل غريب بين

العاشقين، فلقد تغنى بشعره في أكثر من واحدة، وعشق أكثر من حسناً، وهو الذي يكاد يبدو أمام قارئه وكأنه لم يعشق غير واحدة، ولم يحب غير مرة لا ثانية لها، محلقاً بهذا الحب كله في سماء من الطهر والعفة وأفاق من العذرية قلما حلق فيها شاعر عباسى.

إننا فعلًا أمام ظاهرة فنية فريدة تمثل في شاعر يحب أكثر من واحدة، ومع ذلك فهو يقول في كل معشوقته من معشوقاته الكثيرات أبياتاً من الشعر العف الرقيق مما لو وزع على العاشقين أجمعين لوسعهم إفصاحاً وتعبيرًا.

وها هو العباس يترجم عن حبه لظلمٍ بآياتٍ عذبة المأخذ رقيقة الواقع، كلها إعجاب وافتنان واكتبار، يصفها من خلالها بالطهر والحسن والعفة والنقاء، ويضعها في مقام من الجلال لا يتسامى إليه مقام غيرها من بنات جنسها، وذلك في قوله:

نَظَرُ الْعَيْوَنِ إِلَى ظُلُومِ نَعِيمٍ
إِن السَّرُورَ يُقْيِيمُ حِيثُ تُقْيِيمُ
وَأَرَى النِّسَاءَ يَلْمَنِنِي فِي أَمْرِهَا
أَبْغِضُ إِلَيْهِ بِمَنْ أَرَاهُ يَلْوُمُ
مَا قَوَمْتُكِ مَلُوكُ أَرْضٍ قِيمَةً
إِلَّا ارْتَفَعْتَ وَقَصَرَ التَّقْوِيمُ

وَجْهَ يَكِلُّ الْطَرْفُ عَنْهُ إِذَا بَدَا
هُوَ بِالْعَفَافِ وَبِالْتَّقَى مَؤْسُومٌ
يَخْسِدُ وَجْهَكِ يَا ظَلْمُ إِذَا بَدَا
هِيهَاتٍ! مَا لَكِ فِي الْجَمَالِ قَبِيسُمْ
وَغَبَطْتُ نَفْسِي إِذ رَأَيْتُكِ مَرَةً
مِنْ لَا يَرَاكِ فَإِنَّهُ مَخْرُومٌ
وَلَا يَلْبِثُ هَذَا الْأَعْجَابُ وَالْأَكْبَارُ، أَنْ يَتَحُولَ إِلَى عُشُقٍ،
وَيَنْتَقِلُ حُبُّ الْعَبَاسِ بِذَلِكَ إِلَى مَرْحَلَةِ الإِفْصَاحِ بَعْدَ الْكَتْمَانِ.
وَهَا هُوَ يَتَرَجَّمُ عَمَّا يَحْسُسُ مِنْ جُوْيٍ، وَيَعْبُرُ عَمَّا يَكَبِّدُ مِنْ
لَوْعَةٍ، فَقَدْ حَاوَلَ الْوَصْوَلُ إِلَى مُبْتَغَاهُ بِوَاسِطَةِ الْكِتَابَةِ، وَلَكِنْ
الْكِتَابَةِ إِلَيْهَا أَخْفَقَتْ فِي بَلوَغِ مَرَادِهِ، وَعَجَزَتِ الرِّسَائِلُ عَنْ
تَسْيِيرِ الْلِقَاءِ. يَقُولُ الْعَبَاسُ بِصَفَّ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ حُبِّهِ:
ظَلْمُ هِبِي لِي سُوءُ ظَنِّكِ وَأَغْلَمِي
بِأَنَّ الَّذِي بِي مِنْكِ غَنْهُنَّ شَاغِلٌ
مَتَى - لَيْتِ شِعْرِي - نَلْتَقِي؟ وَإِلَى مَتَى
تُؤَدِّي رِسَالَاتِي إِلَيْكَ الْأَنَامِلُ؟
وَأَسْكَتُ كَيْ يَخْفَى الَّذِي بِي مِنْ الْهَوَى
فَتَشَكُّو إِلَى النَّاسِ الْعِظَامُ النَّواَجِلُ
وَأَكْتُمُ جَهْدِي مَا أَجْنُ مِنْ الْهَوَى
فَتَنْتَشِرُ مَا أَخْفَيَ الدَّمْسَوْعُ الْهَوَامِلُ

وكما رحلت فوراً من قبل الى الحجاز، فإن ظلوماً لا تلبث
أن تذهب هي الأخرى للحج. وإن عباساً يرى في أداء ظلوم
فريضة الحج بشرى للمناسك والشعائر، وهذا دليل على أن
ما يكابده الشاعر هو أكثر من عشق بل هو فتنه، وأسمى من
حب بل هو فناء في صاحبته، فيقول:

بَشَّرْ مِنِي بِظُلُومٍ أَنْ تَحْلُّ بِهَا
وَبَشَّرَ الْبَيْتَ وَالْأَرْكَانَ وَالْحَرَمَ
لِيَنْزَلَنَّ بِهَا طَيْبٌ تَطِيبُ بِهَا
تِلْكَ الْبَقَاعُ وَنُورٌ يُكْسِفُ الظُّلْمَ

ويستبد بالعباس عشق صاحبته ظلوم، ويبلية ويشقىه،
فيتصور أن وجده بها قاتل له، وان لوعته بحبها مودية به الى
الهلاك، فيقول شاكياً متوجعاً، باسطاً أكف التوسل إليها،
ضارعاً إلى الله أن ينصره عليها:

أَظْلَومُ حَانَ إِلَى الْقَبُورِ ذَهَابِي
وَبَلِيتُ قَبْلَ الْمَوْتِ فِي أَثْوَابِي
جَسَرَ عَيْتَنِي غُصَصَ الْمَنِيَّةِ بِالْهَوَى
أَفْمَا - بِعَيْشِكِ - تَرْحَمِينَ شَبَابِي؟
سُبْحَانَ مَنْ لَوْ شَاءَ سَوَّى بَيْتَنَا
وَأَدَالَ مِنْكِ، لَقَدْ أَطْلَتِ عَذَابِي

العَبَّاسُ وَالمرأة: عاش العباس بن الأحنف في العصر العباسي، وهو عصر اشتهر به الشعراء بالغزل المادي الحسي، بل هو أكثر من ذلك، هو عصر الشذوذ والغزل بالغلمان، وكنا نتوقع من العباس غزلاً مادياً أسوةً بغيره من الشعراء، أو في أحسن الأحوال مزيجاً من الغزل المادي والعذري، ولكن شاعرنا بشفافيته وريادته للعشاق من شعراء عصره يضع المرأة في مكان رفيع غير متهافت ولا ممتهن حين يصفها، ونکاد نجمع ملامح مذهب العباس في وصف المرأة من خلال شعره في كل من فوز وظلم وهمما أشهر من شبب بهما ووقع في حبائل عشقهما.

إن المرأة التي هي «فوز» هي عنده الشمس رفعهً وسمواً وإشراقاً، وهي أسمى من أن تكون من الإنس، وأرفع من أن تكون من الجن حيث يقول فيها:

إِنِي طَرِبْتُ إِلَى شَمْسٍ إِذَا طَلَعَتْ
كَانَتْ مَشَارِقُهَا جَوْفَ الْمَقَاصِيرِ
شَمْسٌ مَمْثَلَةٌ فِي خَلْقٍ جَارِيَةٍ
كَأَنَّمَا كَشْحَهَا^(۱) طَيِّ الطَّوَامِيرِ^(۲)

(۱) ما بين الخاصرة والضلوع.

(۲) ج طامور وطومار وهو الصحيفة.

لِيَسْتُ مِنَ الْإِنْسِ إِلَّا فِي مُنَاسَبَةٍ
وَلَا مِنَ الْجَنِ إِلَّا فِي التَّصَاوِيرِ
فَالجَسْمُ مِنْ لَؤُلُؤٍ وَالشَّغْرُ مِنْ ظُلْمٍ
وَالنَّشْرُ^(۱) مِنْ مِسْكَةٍ وَالْوَجْهُ مِنْ نُورٍ
إِنَّ الْجَمَالَ حَبَّا فَوْزًا بِخَلْعَتِهِ
حَذَوْا بِحَذْوِهِ وَأَصْفَاهَا بِتَحْوِيرِ
كَانَهَا حِينَ تَمْشِي فِي وَصَائِفَهَا
تَخْطُو عَلَى الْبَيْضِ أَوْ خُضْرِ الْقَوَارِيرِ
إِنْ فَوْزًا مَعْشُوقَة سَاحِرَةُ الْجَمَالِ بَارِعَةُ الْحَسْنِ فِي نَظَرِ
الْعَبَاسِ، تَمْشِي مُتَرِيشَةً مُتَمَهَّلَةً بِعِنْجٍ وَدَلَالٍ كَانَهَا تَخْطُو عَلَى
الْبَيْضِ أَوْ خُضْرِ الْجَرَارِ، وَإِذَا كَانَ الْقَمَرُ هُوَ الْآخِرُ قَدْ عَدَ
بَعْضُ الشُّعْرَاءِ إِلَى تَشْبِيهِ الْحَسَنَاتِ بِهِ، فَإِنْ شَاعِرَنَا يَشْبِيهُ
فَوْزًا بِهِ، وَلَكِنْ بِطَرِيقَةِ ذَكِيَّةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ، وَهِيَ عِنْدَهُ حُورِيَّةٌ
مِنْ سَكَانِ الْفَرْدَوْسِ، فَإِذَا كَانَتْ مِنْ حَسَنَاتِ الدُّنْيَا فَهِيَ
فَرِيدَةٌ فِي حَسَنَتِهَا بَيْنَ الْبَشَرِ، وَالصُّورَةُ فِي مَجْمِلِهَا تَضَفِي
عَلَى الْمَرْأَةِ احْتِرَاماً وَتَمْجِيداً وَإِجْلَالاً.

يَا مَنْ يُسَائِلُ عَنْ فَوْزٍ وَصُورَتِهَا
إِنْ كُنْتَ لَمْ تَرَهَا فَانْظُرْ إِلَى الْقَمَرِ

(۱) الرائحة.

كَانَمَا كَانَ فِي الْفِرْدَوْسِ مَسْكُنُهَا
صَارَتِ إِلَى النَّاسِ لِلَّاِيَاتِ وَالْعِبَرِ
لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا لَهَا شَبَهًا
إِنِّي لِأَحْسَبُهَا لَيْسَ مِنَ الْبَشَرِ
وَلَقَدْ يَعْمَدُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِلَى التَّرْكِيزِ عَلَى مَحَاسِنِ
الْمَرْأَةِ مِنْ خَلَالِ تَرْكِيزِهِ عَلَى مَحَاسِنِ فَوْزِهِ، افْتَنَانًا مِنْهُ بِجَمِيلِهَا
وَإِعْجَابًا بِسُحْرِهَا، فَأَجْمَلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ، وَلَكِنْ
شَاعِرُنَا قَدْ يَغْالِي وَيَبَالُغُ فِي قَوْلِهِ :

يَا فَوْزُ مَا ضَرَّ مِنْ أَمْسِيٍّ وَأَنْتِ لَهُ
أَلَا يَفْوَزُ بِدُنْيَا آلَ عَبَّاسٍ
أَوْ يَقْسِمُ اللَّهُ جُزْءًا مِنْ مَحَاسِنِهَا
فِي النَّاسِ طُرَا لَتَمَّ الْحُسْنُ فِي النَّاسِ
أَبْصَرْتُ شَيْئًا بِمَسْلَاهَا فَوَاعْجَبْتُ
لِمَنْ يَسْرَاهَا وَيَبْدُو الشَّيْبُ فِي الرَّاسِ
وَلَوْ رَأَهَا نَبِيًّا فِي رِسَالَتِهِ
أَحْسَنَ مَنْ قَلِيلٌ فِيهَا بِوْسُواں
وَإِذَا عَمَدَ الْعَبَّاسُ إِلَى وَصْفِ ظَلَومٍ فَإِنَّهُ يَرْقُ وَيَبْدِعُ
وَيَمْتَعُ، كَمَا هُوَ شَأنُهُ مَعَ فَوْزِهِ، وَيَأْتِي بِالصُّورِ الْبَارِعَةِ الْبَعِيدَةِ
عَنِ الْمَعْانِي الْمَادِيَةِ الْمُبَتَذِلةِ، كَمَا يَعْمَدُ إِلَى الصِّيَغِ الْحَضْرِيَّةِ

في وصف المرأة من حيث البحر الشعري القصير، والأوصاف الحضرية شأن الشعراء العباسين، واستجلاب الأساليب البغدادية في التصوير والتعبير، ولكن في غير إسفاف أو تهافت أو ترخيص على الرغم مما في مسلكه من سهولة، غير أنها سهولة ممتنعة حيث يقول:

:

فَلِمْ نَرَ مِثْلَهَا بُشْرًا
نَّ مِنْ أَزْرَارِهَا قَمَرًا
إِذَا مَا زِدَتْهُ نَظَرًا
رُّ فِي أَجْفَانِهَا الْحَوْرَا
تَضَوَّبَ مَأْوَهُ قَطْرًا
إِذَا مَا اللَّيلُ سَالَ عَلَيْهِ
وَرَاحَ وَلَمْ يَكُنْ قَمَرُ فَابْسِرِزَهَا تَكُنْ قَمَرًا

ظُلُومٌ قد رأيناها
كَانَ ثِيَابُهَا أَطْلَعَ
يَزِيدُكَ وَجْهُهَا حُسْنًا
يَعْيَنِ خَالَطَ التَّفْتِيَّ
وَوَجْهِ سَابِرِيٍّ^(۱) لَوْ
إِذَا مَا الظُّلْمَاءُ وَاعْتَكَرُوا
كَمَا لا يفوت العباس أن يصف حُسن المرأة وجمالها وهي تشترك في جنازة. ويدو أن وصف النساء في الجنازات والمآتم كان مما يستهوي خيال الشعراء، وهو أمر وإن بدا قبيحاً لدى جمهرة الناس، فهو شيء محبب عند الشعراء الذين يثيرهم كل منظر غير أليفة. ومن ثم فإن العباس بن

(۱) السابري الثوب الرقيق الجيد، ومن الدروع ما كان دقيق النسج في إحكام.

الأحنف يعمد إلى نفس الوصف الذي عمد إليه أبو نواس في
نفس الفترة الزمنية:

يَا زِينَ مَنْ رَأَتِ الْعَيْوَنُ إِذَا بَدَتْ
وَسْطَ النِّسَاءِ وَلَفَهُنَّ الْمَجْمَعُ
الْحَسْنُ مِنْكِ سَجِيَّةٌ مَطْبُوعَةٌ
وَمِنِ النِّسَاءِ تَخْلُقُ وَتَصْنَعُ
يَسُومُ الْجَنَازَةَ لَوْ شَهِدْتُ تَمَتَّعْتُ
عَيْنِي بِهَا وَلَقَلْمَانِ تَمَتَّعْ
خَرَجْتُ وَلَمْ أَشْعُرْ بِذَاكَ فَلَيْتَنِي
كُنْتُ الْجَنَازَةَ وَهِيَ فِيمَنِ يَتَبَعُ

فالعباس يركز على حسن صاحبته الذي هو سجية وطبع فيها إذا ما قورن حسنها بحسن النساء في مجمع حزين. ومجمل القول أن العباس بن الأحنف كرم المرأة واحتفى بها ووضعها في مكانة عالية حين أحبها ووصفها. إنه لم يتمتنها ولم يجعل منها هدفاً للترفيه أو مقصدأ للشهوة، ولم يدخل عليها بهذا التكريم حتى وهي في مقام المعشوقه المطلوبه، كما أن وصفه تميز بالتصرف الواسع، والذوق الرفيع، والصور المتعددة المتلاحقة والمعاني المتناسبة المتتجانسة وإن اختلفت أساليب التعبير وتبينت وسائل التفكير.

إن العباس بن الأحنف يعتبر بين شعراء العباسية لا بل بين شعراء العربية شاعر المرأة الذي أكثر القسول في وصفها وتكريمها والشغف بها دون النيل منها أو امتهان مكانتها، بل كانت دائمًا عنده في أنسع صورة وأرفع وأعز مكانة.

الغزل بالرسائل والكتب: ظاهرة جديدة في الشعر العربي، هذا اللون من الغزل الذي كانت الرسائل والكتب تلعب فيه دوراً بين العاشقين، إنها ظاهرة حضارية مبتدعة، وهي صدى للعصر الذي كانت المرأة فيه تجيد القراءة والكتابة. أما وإن العباس بن الأحنف سلطان العاشقين في العصر العباسي بحيث قصر شعره على الحب ووقفه على الغزل، فقد بات من الوضوح بمكان شيوع هذه الظاهرة في شعره، فما أكثر ما ضمن وجده صفحة رسالة يبعث بها إلى من أحب، وما أوفر ما عبر عن وجيب قلبه عبر كتاب دس به إلى من أذاقه حرارة الحب ولوحة الحرمان.

وقد أحسن العباس التصرف وأكثر التنويع في وصف الرسائل، وهذه الرسائل ربما كانت صادرة عنه أو تصدر إليه، فهي في أحيان كثيرة متبادلة بين العاشقين، وهو من خلال ذلك يصف حبه ووجده، بل يصف الرسالة نفسها خطأ وإملاءً وأناملًا، وهو يسعد بها كل السعادة إذا حملت إليه موعداً، ويشقى بها إذا تضمنت هجراً وبلغت صدراً، وهي مجال

للسکوی، ووسیلة للمناجاة، ووشیحة للتعاطف، ومیدان
للعتاب.

وها هو العباس يصف ما فعل به العشق وما جنى عليه
الحب في رسالة بعث بها الى من أحب، من عين لا ترقاً لها
دمعة، وجسم ناحل شحوب، وقلب لا يقبل النصح، وسمع
مستعصٍ على الانصياع الى صوت الناصحين. إن العباس
يسوق قوله في عفوية وصدق، وفي غير ما تعسف أو تصنع أو
افتعل، بحيث يُعد قوله شرعاً عند الأدباء، وأنينا وتوجعاً عند
العشاق، وتمرداً وخرروجاً على المأثور عند الحكماء، وهذا
نحن نستعرض رسالة العباس لنرى ما جاء فيها حيث يقول:

كتب المحبُ الى الحبيب رساله

والعين منه ما تجفُّ من البَكَا
والجسمُ منه قد أضرَّ به البَلَى
والقلبُ منه ما يطأوغُ من نَهَى
قد صار مثلَ الخيطِ مِنْ ذُكراَكُمْ
والسمعُ منه ليس يسمَعُ من دَعَا
هذا كتابُ نحوكم أرسَلتُه
يَبْكِي السَّمِيعُ لَه ويَبْكِي مَنْ قَرَا
فيه العجائِبُ مِنْ مُحِبٍ عاشقٍ
أطْفَاه حُبُكِ يا حَبِيبَةُ فانطفَا

وينطلق الشاعر من الحديث عن وجده، الى تصنيف نفسه في سلك مشاهير العاشقين العذريين أمثال جميل وعروة والمرقش. ولكنه لا يأت على ذكر غير العذريين أمثال عمر بن أبي ربيعة وغيره، حيث يمضي قائلاً:

ما إن صَبَا مِثْلِي جَمِيلٌ فَاعْلَمِي
حَفَّاً وَلَا الْمَقْتُولُ عَرْوَةٌ إِذْ صَبَا
لَا لَا مِثْلِي الْمَرْقُشٌ إِذْ هَسْوَى
أَسْمَاءٌ لِلْحَيْنِ الْمُحْتَمِ وَالْقَضَا
رُدُّي جِوابَ رِسَالَتِي وَاسْتَئْفِنِي
أَنَّ الرِّسَالَةَ مِنْكُمْ عِنْدِي شِفَا

ويتحدث العباس عن كتاب وفدي عليه من صاحبته فيقول:

كِتَابٌ أَتَانَا عَلَى نَائِبِهَا^(١)
يُخَبِّرُ عَنْ بَغْضٍ أَنْبَائِهَا
فَنَفَسِي الْفَدَاءُ لِهَذَا الْكِتَابِ
بِإِنْ كَانَ خُطًّا بِإِمْلَائِهَا

ثم لا يلبث العباس وقد تلقى كتاباً آخر من محبوبته أن يعمد الى شيء من الإطناب في إظهار إعجابه بالكتاب وصاحبة الكتاب، ويفصل القول حياله، ذلك أنه كتاب من

(١) بُعْدَهَا.

ظلام . إنه يصف كيف استقبله ، وكيف فضه ، وكيف قرأه ،
ثم يعبر بعد ذلك عن كوامن نفسه وعاطفته إزاء محتواه
فيقول :

بعثت إليَّ صحفةً مختومةً
نفسِي الفداء لخطها والكاتبِ
ففككتها فقرأت ما قد حبرت
فيما إذا مقالةٌ مستزيرٌ غائبٌ
في الود تزعمُ أنني ذو ملةٌ
خنت العهود فذئتها من كاذبٍ
أني أخونك يا ظلوم وحبيكم
مني بحيث جرى شرابُ الشاربِ
وكثيراً ما كان يكتب العباس إلى صاحبته فلا يتلقى ردآ
سريعاً، فيستبد به القلق، وتسرح به الظنون، ويتطرق إلى
قلبه اليأس، وقد غاب عن ذهنه أن المحب محاط بالرقباء
مستهدف باللحظة، حتى إذا تسلم بعد حينٍ ردَّ كتابه
فاضت شاعريته فصور أحاسيسه وهواجسه، كما تجري على
لسان معشوقته أسباب تأخر ردها عليه، وفي هذا يقول
العباس :

كتبتُ إلى ظلوم فلم تجبني
وقالتْ ماله عندي جواب

فلما استيقنت نفسي أتاني
 - وقد غفل الروحاء - لها كتاب
 وفيه الوصل يُشرق جائِبَاهُ
 وقد رقَّ التَّأْوُلُ والخطابُ
 كَتَبَتْ إِلَيَّ والرقباء حَوْلِي
 إذا ما مَرَّ طَيرٌ بي اشتراها
 أما تَعْلَمْ يقيناً أنَّ أهلي
 علىَ لَهُمْ عَيْنُ وارتسَابُ

وقد يعمد العباس إلى أساليب التعبير في رسائله، أسلوب المرأة وهي تعتب، وأسلوب العاشق وهو يدافع عن نفسه فيدفع أسباب الاتهام فيقول:

يا أبا الفضل يا كَرِيمَ التَّصَافِي
 ما لِفَوْزٍ تَقُولُ إِنَّكَ جَافِ
 كَتَبَتْ فِي الْكِتَابِ فَوْزٌ فَقَالَتْ
 فِي عَتَابٍ مِنْهَا وَفِي إِلْطَافٍ
 مَا مَلِلَنَاكَ إِذْ مَلَلْتَ وَلَكِنْ
 أَنْتَ يا حِبْ صاحبُ اسْتِظْرَافٍ
 وَكَذَاكَ السَّمْلُولُ مِنْ سَائِرِ النَّا
 سِ سَرِيعُ الْإِقْبَالِ وَالْأَنْصِرَافِ

فَوْزٌ مَا مَلَّتُ وَاللَّهِ وَلَا كُنْ
سُتُّ لِقَوْمٍ سَوَاكُمْ بِالْمُصَافِي
أَيْهَا الرَّاقِدُونَ حَسْلَيْ هَبِيئَا
إِنَّ جَنْبِي عَنْ مَضْجَعِي مُتَجَافِي
إِنْ مَنْ يَنْظَرُ فِي دِيْوَانِ الْعَبَاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ يَجِدُه مُتَرْعَأً
بِالْعَدِيدِ مِنْ هَذِهِ النَّمَادِيجِ الَّتِي قِيلَتْ حَوْلَ الْكِتَابِ وَالرَّسَائِلِ،
مُسْجَلًا بِذَلِكَ ظَاهِرَةً جَدِيدَةً فِي عَالَمِ الْعُشُقِ، مُبْتَدِعًا أَسْلُوبِيَا
مُسْتَحْدِثًا فِي نَطَاقِ الْغَزْلِ الْحَضَارِيِّ الَّذِي يَتَمُّ بِالْمَكَاتِبِ
وَيَكْتَمِلُ بِالْمَرَاسِلَةِ، وَلَا أَعْتَدُ أَنْ هَنَاكَ شَاعِرًا عَاشَقًا غَيْرَ
الْعَبَاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ قَدْ قَالَ فِي هَذَا النَّطَاقِ مَا قَالَهُ الْعَبَاسُ مِنْ
حِيثِ وَفَرَةِ الشِّعْرِ، وَتَعْدُدِ الْمَعَانِيِّ، وَكَثْرَةِ الْمَوَاقِفِ، وَرَقَةِ
الْمَأْخِذِ، وَتَنْوِعِ الْحَوَارِ. وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْعَبَاسُ قَدْ سَجَلَ
سَابِقَةً فَنِيَّةً اخْتَصَّ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ مِنْ شَعَرَاءِ عَصْرِهِ وَأَدْبَاءِ
زَمَانِهِ.

الشَّكْوَى وَالتَّوْجُعُ فِي شِعْرِ الْعَبَاسِ: يُعَدُّ الْعَبَاسُ بْنِ
الْأَحْنَفَ سُلْطَانَ الْمُحْبِينَ فِي عَصْرِهِ وَزَمَانِهِ دُونَ مَنَازِعِ،
وَبِالْتَّالِي فَهُوَ زَعِيمُ الشَّعَرَاءِ الْعَاشِقِينَ، وَإِنَّهُ لِأَمْرٍ طَبِيعِيِّ أَنْ
يَتَشَكَّى الْمُحْبِونَ، وَأَنْ يَتَوْجَعُ الْعَاشُقُونَ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ
الْعَاشُقُ مِنْهُمْ مُثْلِ الْعَبَاسِ صَادِقُ الْوَدِ مُلْتَهِبُ الْحُبِّ رَقِيقُ
الْلَّفْظِ مُهْتَاجُ الْعَاطِفَةِ وَالْمَزَاجِ مُرْهَفُ الْإِحْسَاسِ، أَمَا وَإِنْ كُلَّ

شعره في الغزل، فإننا لا شك ننتظر منه صوراً عديدة من القول في الشكوى والتوجع، ومعانٍ مرهفة في التعبير عن لوعته وحرقته، حيث يقول:

يَا وَيْحَ مَنْ عَلِقَ الْأَجْبَةَ قَلْبُهُ
حَتَّىٰ إِذَا ظَفَرُوا بِهِ قَاتِلُهُ
غَزُوا وَمَالَ بِهِ الْهُوَى فَآذَلُهُ
إِنَّ الْعَزِيزَ عَلَى الدَّلِيلِ يَتَبَيَّهُ
انظُرْ إِلَى جَسَدٍ أَضَرَّ بِهِ الْهُوَى
لَوْلَا تَقْلُبَ طَرْفُهِ دَفَنُوهُ

منْ كَانَ خَلْوَا مِنْ تَبَارِيعِ الْهُوَى
فَأَنَا الْهُوَى وَخَلِيفُهُ وَأَبُوهُ
يعد العباس إلى المداراة والمراؤغة ليختفي اسم وشخصية من يحب حفاظاً عليها وعلى سمعتها من أن تُدنس أو تُنهان أو أن يشتهر أمرها وأمرها، وهكذا يضع العباس نفسه وقلبه بين نارين، نار الشكوى واللوعة والتوجع، ونار الضن بالبوج والتزام الكتمان، فيقول:

إِنِّي وَضَعَتُ الْحُبَّ مَوْضِعَهُ
وَاحْتَلَتُ حِيلَةَ صَاحِبِ الدُّنْيَا
وَإِذَا سُئِلْتُ عَنِ التَّيِّ شَغَفْتُ
قَلْبِي وَكُلْتُهُمْ إِلَى أُخْرَى

ما زلت أكذبهم وأكتُمُهم
حتى شُهِرت بغيرِ من أهوى

وعض العباس العاشق الموله سادراً في توجعه وفي
شكواه، مُلِحَا على إظهار لوعته وضناه، ملتزماً النهج الذي
سار عليه، محافظاً على العهد الذي قطعه على نفسه إلا يوح
باسم صاحبته، أو أن يذكر حتى قرينة تسم عن شخصيتها،
فيأتي بهذا الدُّرُّ الذي سداه الشكوى ولحمته الحفاظ على
الوفاء، ملؤه الموسيقى متربعة والإيقاع أخذاؤاً:

أبكي إلى الشَّرْقِ إِنْ كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ
مَا يَلِي الْغَرْبَ خَوْفَ الْقِيلِ وَالْقَالِ
أَقُولُ بِالْخَدِّ خَالٌ حِينَ أَنْعَثُهَا
خَوْفَ الْوُشَاةِ وَمَا بِالْخَدِّ مِنْ خَالٍ
يَا أَغْفَلَ النَّاسِ عَمَّا يَبِي وَأَعْلَمُهُمْ
بِمَا يُدَاوِي بِهِ حُزْنِي وَيَلْبِسُهُ
لَسَنَا وَإِنْ كُنْتَ تَجْفُونَا وَتَقْطَعُنَا
بِتَارِيكَ عَلَى حَالٍ مِنَ الْحَالِ

ويعزف العباس على قيثارة العذرية في توجعه وشكواه،
يعمق ويرق، يشف ويلتاع، ولكنه عمق الإيجاع، ورقة
الصباة والجوى، وشفافية الطهر والعفاف، والتياع العاشقين

المتيمين، يلعب بعواطف الناس، ويحرك أشجان الخليجين حتى ليكادوا يستذبون الألم في سبيل الحب، يفلسف الشكوى، محتفظاً بصمته، ملتزماً بكتمانه، مستلذاً بحرمانه وهو يقول:

خليلىٌ ما للعاشقين قلوب
ولا للعيون الناظرات ذنوب
ويا مُعشر العُشاق ما أوجع الهوى
إذا كان لا يلقى المُحب حبيب
أموت لِحَيني^(١) والهوى لي مطاوع
كذاك منايا العاشقين ضُرُوب
عَدِمتْ فؤادي كيف عَذَّبَهُ الهوى
أما لفؤادي من هواه نصيب؟

ويفيض بالشاعر العاشق الوجع، ويؤرقه البعد والهجر، ويقضى مضجعه الحرمان، فهو وحده المحروم، وكل العاشقين قد استمتعوا بالوصول ونعموا باللقاء من دونه، إن الشاعر هنا يعاني من الصراع النفسي وشكوى الوشاة مع محاولة يائسة إلى إقناع نفسه بالسلُّو والنسيان حيث لا سبيل إلى سلو أو نسيان فيقول:

(١) لتوى - الأن.

أَرَى كُلَّ مَعْشُوقِينَ غَيْرِي وَغَيْرَهَا
قد أَسْتَعْذَبَا طَعْمَ الْهَوَى وَتَمَتَّعَا
وَإِنِّي وَإِيَاهَا، عَلَى غَيْرِ رِقْبَةٍ^(١)
وَتَفْرِيقِ شَمْلٍ، لَمْ نِيْتْ لِيَلَةً مَعًا
وَقَدْ عَصَفَتْ رِيحُ الْمَوْشَأَةِ بِرَوْضَلَنَا
وَجَرَّتْ عَلَيْهِ ذِيلَهَا فَتَقْطَعَا
وَإِنِّي لَأَنْهَى النَّفْسَ عَنْهَا وَلَمْ تَكُنْ
بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سِوَاهَا لِتَقْنَعَا

ظل العباس يشارك الناس بالسخرية من العاشق الذي يُحبُّ من طرف واحد، دون أن يبادله المعشوقُ حُبَّهُ، حتى ابتلي بحب من لا يحبه، والمفترض أن مثل هؤلاء العشاق الغافلين يكونون عرضة للتندر ومثاراً للسخرية حيث يقول:

مَا زَلْتُ أَسْخَرُ بِمَنْ يُحِبُّ مَنْ لَا يُحِبُّهُ حَتَّى ابْتُلِيَتْ بِمَنْ لَا يَهْوِي بِعَادِي وَهَجْرِي نَمِثْلَ مَالِي قَلْبُهُ	مَا زَلْتُ أَسْخَرُ بِمَنْ يُحِبُّنِي وَأَحِبُّهُ حَتَّى ابْتُلِيَتْ بِمَنْ لَا يَهْوِي بِعَادِي وَهَجْرِي فَلِيَتْ قَلْبِي لَهُ كَا
---	--

(١) تحفظ وفزع.

ويرحل العباس العاشق المحب في إثر معشوقته، فلا ينال
قرباً ولا يصيب وصالةً، وهنا يشعر بالغصة والمرارة، غصة
الهجر ومرارة الاغتراب، فيبعث الشكوى يوجهها الى هاجرته
مباشرةً بهذا القول الساحر الحزين:

لا تجتمعي هجراً علىٰ وغربةٌ
فالهجرُ في تلفِ الغَرِيبِ سَرِيعٌ
من ذا - فَدَيْسِكِ - يستطيعُ لحْبِهِ
كثماً إذا اشتملتْ عليهِ ضُلُوعُ

ويعود العباس الى نفسه يشكو ويبكي ويغنى وينطق
القول ويفلسف العشق ويرسل التشبيه البليغ حين جعل من
نفسه ذبالة^(١) تضيء للناس وهي تحترق. إن أبيات العباس
جمعت من المعاني ما لم يجمعه قول عاشق من قبل: عشق
وحرمان وتقرير ومنطق وواقعية في نطاق المعنى، وبيان
وبداع في نطاق الأسلوب حيث يقول:

إِنِّي لَا تَعْرِفِينَ مَا الْهَمُ
وَالْغَمُّ وَلَا تَعْلَمِينَ مَا الْأَرْقُ
أَنَا الَّذِي لَا تَنَامُ عَيْنَائِي وَلَا
تَرْقَى^(٢) دَمْوَعِي مَا دَامَ بِي رَمْقٌ

(١) شمعة.

(٢) تجف - تنقطع.

أَخْرَمُ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ
نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَيْشُوا
صِرْتُ كَائِنٌ ذُبَالٌ نُصِبْتُ
تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهُنَّ تَخْتَرِقُ
إِنَّ الَّذِي نَرِيدُ أَنْ نَقْرِرَهُ فِي شَأنِ الْعَبَاسِ حِينَ يَشْكُو أَنَّهُ
اسْتَحْدَثُ أَسَالِيبٍ مُتَعَدِّدةً فِي شَكْوِ الْمُحِبِّينَ، جَمِيعَ بَيْنِ
الْعُمَقِ وَالْمُتَنَوِّعِ، كَمَا جَمِيعَ بَيْنِ عَذْرَيَّةِ الْبَدَوْرَةِ وَرَقَةِ أَسَالِيبِ
الْحُضْرَةِ، وَهُوَ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِشَاعِرٍ آخَرَ غَيْرِ الْعَبَاسِ بْنِ
الْأَحْنَفِ.

العباس وفنون الشعر

وحتى تكون الصورة واضحة تماماً حول تفرد العباس بن الأحنف بين شعراء عصره في وقف شعره على الغزل دون غيره من فنون الشعر، وأنه هو نفسه كان يعمد إلى اتخاذ ذلك مسلكاً، والتزامه منهجاً، غير مبالٍ بأولئك الذين اتهموه بقصر الباع في الشعر لأنَّه لم يعدد القول في فنونه المختلفة فقال:

لَحَوْنِي فِي الْقَرِيرِضِ فَقُلْتُ أَلْهُو
وَمَا مَنِي الْهَجَاءُ وَلَا الْمَدِيْحُ

إلا أنه من الملاحظ أن هناك مواقف قليلة خرج فيها العباس عن النهج الذي التزمه، ففي ميدان المديح مثلاً لم يمدح أحداً سوى الرشيد ووزيره، فقد اصطحب الخليفة معه العباس في رحلة إلى خراسان، فكانت هذه مناسبة قال فيها الشاعر أربعة أبيات مدح فيها الخليفة ووزيره بيت واحد، واشتكتي الهجر والجوى في ثلاثة أبيات وذلك في قوله:

أَسَأَلُ اللَّهَ خَيْرَ هَذَا الْمَسِيرِ
وَإِيَابًا^(۱) فِي غَبْطَةٍ وَسُرُورٍ

(۱) عَوْدَةً.

أنا في عَسْكِرٍ لخَيْرِ أَنَّثَامِ
زَانَهُ رَبُّهُ بِخَيْرٍ وزَيْرٍ
غَيْرُ أَنِّي نَفَضْتُ مَا أَنَا فِيهِ
بِمُتَّاحٍ مِنَ الْهَوَى مَقْدُورٍ
وَيَهْجُرٍ مِنَ الْحَبِيبِ فَلَا تَسْ
أَلْ بِأَحْوَالِ عَاشِقٍ مَهْجُورٍ
وهو كما ترى مدحع ركيك، ربما كان الامتناع عنه خيراً من
الاقدام عليه، ذلك أن الرجل لم يكن مداحاً، وإنما كان غزاً
شكاءً.

وحتى الرثاء الذي يكون القول فيه ضرورة تحتتها على
الشعراء طبيعة حياتهم وصلاتهم بالرؤساء والأعيان، لم
يشارك فيه العباس أيضاً إلّا مرةً واحدةً حين رثى «ضياء»
جارية الرشيد، بل إنه لم يرسل الرثاء فيها بشكل مباشر،
وإنما أطلقه على لسان الرشيد نفسه حيث يقول:

أَلَا إِنَّ صَفَوَ الْعَيْشَ بَعْدَكِ أَكْدَرُ^(١)
وَكُلُّ نَعِيمٍ سُوفَ يُقْلَى^(٢) وَيَهْجُرُ

(١) فهو غير صاف.

(٢) يُكره - ويبغض.

لَعْمَرِي لَيْلَمُ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ الْبَكَا
 إِذَا فَنَى الصَّبَرُ الَّذِي كَانَ يُذْخَرُ
 سَائِكِي «ضياء» مُسْتَقْلًا لَهَا الْبَكَا
 وَيُسْعِدُنِي^(١) «يَحْنَى» وَ«فَضْلٌ» وَ«جَعْفَرٌ»
 وَلَعْلَنَا نَلَاحِظُ أَنَّهُ رَثَاءٌ هَزِيلٌ، أَقْلَى مَا يُقَالُ عَنْهُ أَنَّهُ عَزَاءٌ بَغِيرٌ
 رُوحٌ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ يَجِيدَ الرَّثَاءَ.

وَأَمَّا الْهَجَاءُ فَلَمْ نَقْرَأْ لِلْعَبَاسِ غَيْرَ بَيْتَيْنِ اثْنَيْنِ قَالَهُمَا فِي أَبِي
 الْهَذِيلِ الْعَلَافِ رَأْسَ الْمُعْتَزَلَةِ فِي زَمَانِهِ، ذَلِكَ أَنَّ أَبَا الْهَذِيلِ
 كَانَ قَدْ قَرَا قَصْيَدَةَ الْعَبَاسِ التِّي مَطْلُوْبُهَا:

عَيْنَايَ شَامَتْ^(٢) دَمِيَ وَالشُّؤْمُ فِي النَّظَرِ
 بُعْدًا لِعَيْنٍ تَبِعُ النُّومَ بِالسَّهَرِ

وَفِيهَا يَقُولُ:

فَأَكْثِرُوا أَوْ أَقْلُوا مِنْ إِسَاعَتِكُمْ
 فَكُلُّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْقَدِيرِ
 إِذَا أَرَدْتُ سُلُّوا كَانَ نَاصِرُكُمْ
 قَلْبِي وَمَا أَنَا مِنْ قَلْبٍ يَمْنَتِصِرِ

(١) يُعِينُنِي - يَسْاعِدُنِي.

(٢) تَطْلُعُ إِلَيْهِ بِمَرْفَأٍ.

فكان أبو الهذيل يغض الشاعر ويلعنه ويقول عنه: إنه يعقد الكفر والفحور في شعره، وكان من الطبيعي أن يغضب الشاعر لنفسه، فهو لم يكن كافراً ولا فاجراً إلّا في نظر أبي الهذيل، فأنشأ بهذه المناسبة بيتين ثاراً فيهما لنفسه وسخر من أبي الهذيل وجماعته ومعتقداتهم عامة ومن القضاء والقدر خاصة قائلاً:

يَا مَنْ يُكَذِّبُ أَخْبَارَ الرَّسُولِ لَقَدْ
أَخْطَأَتِ الْجَارِيَ عَلَيْكَ فَقَدْ
كَذَبَتِ الْقَدْرِ الْجَارِيَ عَلَيْكَ فَقَدْ
أَتَاكَ مِنِّي بِمَا لَا تَشْتَهِي الْقَدْرُ
وَبِهَذِهِ الْمَنَاسِبَ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نُنْهِي أَنَّ الْعَبَّاسَ بْنَ الْأَحْنَفَ
ذَكَرَ فِي شِعْرِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً مَعْنَى اجْتِمَاعِيَاً إِنْسَانِيَاً يَمْسُّ أُوتَارَ
الْقُلُوبَ وَيَهْزِهَا بِقُوَّةٍ وَعَنْفٍ حِينَ وَصَفَ إِنْسَانًا فَقِيرًا وَرَثَى
لِحَالِهِ وَلِمَكَانِهِ فِي الْمَجَمِعِ وَصُورَ مُشَاعِرِ النَّاسِ نَحْوَهُ وَحَتَّى
الْكَلَابَ كَيْفَ تَتَصَرَّفُ حِينَ تَرَاهُ قَائِلاً:

يَمْشِي الْفَقِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضِدُّهُ
وَالنَّاسُ تُغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابَهَا
وَتَرَاهُ مَبْغُوضًا وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ
وَيَرَى الْعَدَاؤَ لَا يَرَى أَسْبَابَهَا

(١) تَدْعُ - تَرَك.

حَتَّى الْكِلَابُ إِذَا رَأَتْ ذَا ثَرْوَةَ
خَضَعَتْ لَذِيهِ وَهَرَكَتْ أَذْنَابَهَا
وَإِذَا رَأَتْ يَوْمًا فَقِيرًا عَابِرًا
نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَشَّرَتْ أَنَيَابَهَا

إن هذه الأبيات من أعمق وأمنع ما قيل في القيم الإنسانية والمعاني الاجتماعية في الشعر العربي ، وكم كنا نتمنى لو أن ابن الأحنف أكثر من القول فيها، إذن لأمنع قراء الأدب العربي بأدب نفيس وبشعر إنساني ثمين.

تلك هي الأبيات القليلة التي قالها العباس بن الأحنف في غير الحب والغزل ، وفيما عدا ذلك فهو الوحيد بين الشعراء الذي كرس شاعريته للحب غناءً وشكوىً وتوجعاً، ومناجاة وحنيناً، وسهرأً وأنيناً، يبتدع الصور العذبة، ويأتي بالمعاني المستحدثة .

صور العشق عند العباس

لعل شاعراً من الشعراء العشاق لم يوهب القدرة على تصوير العشق والآلامه وتباريحة وأصدائه كما وهب العباس بن الأحنف . لقد أغنى العباس الشعر بصور من العشق لم يسبقها إليها شاعر آخر . إن العباس يؤثر صحبه على نفسه ويصف الهجر فيكى ، ويدرك القرب فيطرب ، ويصور القرب والهجر في وقت واحد معاً ، وهو يحلل نفسية العاشقين ، ويتحدث عن لغة العيون ، ويصف رسول الحب ورسائله ، ويغار من الرسالة والرسول ، ويتصدى للزيارة وما يلابسها من سرية وتحف ووشایة ، ويفلسف تردد العاشقين على من يعشقون ، ويجعل للحب باباً لا يدخله إلا جسورة ، ويلتذ بعذاب الحب ويستمسك به ، كما يرجو من الله أن يموت على دين الحب حتى يصير أحدوثة للزمان ورائدأ للعشاق ، وهو يجري حديثاً جديلاً بين القلب والعين لكي يظهر أيّاً منهما يتحمل وزر عذابه ووجده وألمه ، ويحاول أن يسن تشريعاً خاصاً بإباحة العشق حتى في أيام الحجج والإحرام .

إن العباس فنان بارع في فنه انه يتبع الصورة بالصورة ، ويربط الموقف بال موقف في تعدد منقطع النظير ، وجرأة إن لم تكن مستساغة أو مستملحة فهي غير فجة ولا مرفوضة ، ومنطق اذا لم نعجب به فإننا لا نستطيع الاعتراض عليه .

ولعل سرّ سعة باع العباس في هذا السبيل في أنه يجمع في شعره وفكره وخواطره أحاسيس البداءة وطهر العذرية في مزاجٍ من أسلوب الحضارة وطراوة المدينة مع حسن التصرف وعفة المقصود، أضف إلى ذلك كله تفرغ العباس تفرغاً كاملاً للحب، عاش في محاباه، وأكتوى بناره، ونعم بلذته، وأخلص القول فيه، فكان أن صادف من التوفيق والبراعة في التعبير عن نفسه ما لم يتتوفر لغيره من الشعراء العاشقين. وإنه لمن الصعوبة بمكان أن نعرض لكل صور الحب التي جرت على لسان العباس، ولكننا سوف نحاول أن نعرض منها ما يمكن أن ينهض أساساً للحكم ويصلح شواهد للاطلاع والاستمتاع.

إن العباس يؤثر صاحبته على نفسه إذا حدث تضاد بين رغبته ورغبتها حتى ولو أدى ذلك إلى إلحاق الضرر به.

إذا سرّها أمرٌ وفيه مسألي
قضيت لها فيما تُحب على نفسِي

وما مرّ يوم أرجّي فيه راحتني
فأخبره إلا بكئست على أمسِ
ومرة ثانية يعمد العباس إلى موقف إيثار صاحبته على نفسه، ولكنه هذه المرة يقرر الإيثار وقد سبقه عتاب ولحظه هجران. ويصف ما سببه هذا الهجران من ألم وأثر ذلك على

نفسه بصورة لم يسبقها إليها شاعر من قبل حيث يجعل بعضه يبكي على بعضه الآخر تالمًا وشكوى وتفجعًا فيقول:

إِذَا جَاءَنِي مِنْهَا الْكِتَابُ بِغَيْرِهَا
خَلَوْتُ بِنَفْسِي حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْأَرْضِ
وَأَبْكَيْتُ بِنَفْسِي رَحْمَةً مِنْ عِتَابِهَا
وَبَكَيْتُ مِنَ الْهِجْرَانِ بَعْضِي عَلَى بَعْضِي
وَإِنِّي لِأَخْشَاهَا مُسِيَّاً وَمُحْسِنًا
وَأَقْضِي عَلَى نَفْسِي لَهَا بِالَّذِي تَقْضِي
فَحَتَّى مَتَّى رُوحُ الرَّضَا لَا يُصِيبُنِي
وَحَتَّى مَتَّى أَيَّامُ سُخْطِكِ لَا تَمْضِي
وللعباس بن الأحنف في الزيارة نماذج من الشعر الجذاب، ومعانٍ من القول المعجب، الرقيق المطرب. إنه يجري حواراً طريفاً يتركز في سؤال وجواب، سؤال صادر منه وجواب صادر إليه، والظريف أنه يتقمص في الجواب شخصية محبوبته محاكياً لغة المرأة وأسلوبها وخوفها ودلالها فيقول:

قَلْتُ: الْزِيَارَةُ، قَالَتْ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ:
اللَّهُ يَعْلَمُ فِيهَا كُنْهَ إِضْمَارِي
فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِالسَّوَاشِينَ - لَا سَلِمُوا -
وَالْحَلْيُ وَالْطَّيْبُ يَأْتِيهِمْ بِأَسْرَارِي

وتسمو صور العشق وترق الى حد الشفافية حين يتشاركي العباس وصاحبته عند اللقاء، ويركز العباس على عفة الحديث وظهر اللقاء بحيث لو سمعت الطيور نجواهما لعكفن على ترديدها، إذ بعفة الحب وظهر اللقاء يضمان للعشاق من بعدهما دستوراً وللمحبين مبادئ وستناً حيث يقول:

إِذَا تَقَيْنَا شَكَوْنَا مَا نُكَاهِمْهُ
فِي عَفَةٍ وَحَدِيثٍ مِنْ هُنَا وَهُنَا
لَوْ تَسْمَعُ الطِّيرُ مَا نَشَكُونَ عَكْفَنَ بَنَا
كَمَا عَكْفَنَ بِسَداوَدَ الَّذِي افْتَنَنَا
فَمَا تَرَأَلْ لَنَا أَشْيَاءٌ تُخَدِّثُهَا
تَكُونُ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدَنَا سُنَّنَا
وَتَتَكَرَّرُ الْمُنَاجَاةُ، وَتَطْوِلُ الْمُشَاكَاةُ، وَيَتَعَدَّ الْلَّقَاءُ بَيْنَ
الْعَاشِقِينَ، وَيَعْمَدُ فِي أَبِيَاتِهِ إِلَى أَسْبَابٍ مِنَ الصَّدْقِ وَالصَّفَاءِ
فِي الْقَوْلِ، وَإِلَى سُمَّاتٍ مِنَ الْانْفِعَالِ لَمْ يُسْتَطِعْ كَتْمَانُهَا
وَقِرَائِنُ عَلَى الْعُشُقِ لَمْ يَجِدْ حِرجًا فِي إِعْلَانِهَا، بَلْ إِنَّهُ قَصْدٌ
إِلَى إِعْلَانِهَا لِكَيْ يَصِيرَ وَمَعْشوقَهُ أَحْدُوْثَ الزَّمَانِ فِي كُلِّ
مَكَانٍ:

قُلْ لِلَّتِي وَصَفَتْ مَحَبَّتَهَا
لِلْمُسْتَهَمِ بِذِكْرِهَا الصَّبَّ

مَا قُلْتَ إِلَّا الْحَقُّ أَعْرِفُهُ
 أَجَدُ الدَّلِيلَ عَلَيْهِ مِنْ قَلْبِي
 قَلْبِي وَقَلْبُكِ بِذُعْنَةٍ خُلِقَا
 يَتَجَادِبَانِ بِصَادِقِ الْحُبِّ
 يَتَهَادِيَانِ هُوَيْ سَيِّرُكُنَا
 أَخْدُوَتَهُ فِي الشَّرْقِ وَالْغَربِ
 وَهَا هُوَ يَخَاطِبُ الْحُبَّ وَكَأَنَّهُ إِنْسَانٌ يَعْقُلُ، فَلَا يَلْبِثُ
 الْحُبُّ أَنْ يَجِيئَهُ بِأَنَّهُ سَيِّدُ الْعُشَاقِ وَرَأْسُ الْمُحْبِينَ، وَهَا هُوَ
 يَدْعُونَ عَلَيْهِ أَلَا يَشْفَى مِنْ حَبَّهُ وَلَا يَبْلُ(١) مِنْ وَجْدِهِ، إِنَّهَا وَاحِدةٌ
 مِنَ الصُّورِ الْكَثِيرَةِ لِلْعُشُقِ فِي قَامِوسِ الْعَبَاسِ يَكْرَرُهَا وَكَأَنَّهُ
 يَطْرُبُ لَهَا رَغْمَ مَا تَحْمِلُ إِلَيْهِ مِنْ تَعَاسَةٍ وَشَقَاءٍ.

كَتَبَ الْحُبُّ فِي جَبَّينِي كِتَابًا
 بَيْنَا كَالْكِتَابِ فِي الْقِرْطَاسِ
 أَنْتَ فِي الْحُبَّ رَأْسُ كُلِّ مُحِبٍّ
 لَا شَفَاكَ إِلَّهٌ مِّمَّا تُقَاسِي
 وَمِنْ صُورِ الْعُشُقِ الَّتِي يَعْرِضُهَا الْعَبَاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ وَلُؤْجَهُ
 بَابُ تَحْلِيلِ نَفْسِيَّةِ الْمَرْأَةِ الْمَعْشُوقَةِ فِي بَعْضِ حَالَاتِهَا. فَهُوَ
 يَعْجَبُ مِنْ سُلُوكِ مَحْبُوبِهِ، وَتَقْلِبِ مَزاجِهَا، وَتَطْرُفُهَا فِي

(١) يَشْفَى.

الدلال، وتناقضاتها في التصرف، وتضاربها في الأحكام، وخشونتها في السلوك وكأنها لا تعرف الحب، وكان الحب لم يجد طريقة إلى قلبها. ويجري الشاعر مقارنة بين قلبه وقلبها، ومشاعره ومشاعرها، فهو على الرغم مما هي عليه من خشونة وتنع وإعراض، نجده يسعى إلى التقرب منها، وطلب رضاها، ويتمى أن تلقى بعض ما يلقى من وجد وعداب فتقاسمه الهوى وتشاركه نفس الشعور. إن العباس يقدم صورة من العشق مشحونة بالصور، موسومة بالحركة، مليئة بالزينة اللغوية - من مقابلة وطبق - فرضتها عليه طبيعة المواقف المتعارضة والأهواء المتناقضة مع مشوقته، ويبدو العباس مغيطاً في أبياته بحيث قرن الكثير من الجد بغير قليل من الهزل إظهاراً لامتعاضه وتسجيلاً لسخريته من سلوك محبوبته وهو سلوك أقل ما يقال عنه أنه صلف متعال معرض مغزور. حتى أنه لو رضيت يوماً لم يسعد بهذا الرضا لعلمه أنه سوف يتبعه الخصم والعتاب، ويبكي إذا هي أذنت خوفاً من صدتها، ويسألهما مرضاتها وهي المذنبة حيث يقول:

... إِذَا رَضِيْتُ لَمْ يَهْتَنِي ذَلِكَ الرَّضَا
لِعِلْمِي بِهِ أَنْ سُوفَ يَتَبَعُهُ الْعَتَبُ
وَأَبْكِي إِذَا مَا أَذْنَبْتُ خَوْفَ صَدْهَا
وَأَسْأَلَهَا مَرْضَاتَهَا وَلَهَا الذَّنْبُ

ولو أَنْ لِي تِسْعِينَ قَلْبًا تَشَاغَلْتُ
 جَمِيعًا فَلَمْ يَفْرَغْ إِلَى غَيْرِهَا قَلْبٌ
 وَلَمْ أَرَ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْحُبَّ غَيْرَهَا
 وَلَمْ أَرَ مَنْ مِثْلِي حَسْنَوْ أَثْوَابِهِ الْحُبُّ
 وَصَالُكُمْ صَرْمٌ^(١) وَجُبُكُمْ قَلْيٌ^(٢)
 وَعَطْفُكُمْ صَدٌ وَسِلْمُكُمْ حَرْبٌ
 وَأَنْتُم بِحَمْدِ اللَّهِ فِيكُمْ فَظَاظَةٌ
 فَكُلُّ ذَلْوِلٍ^(٣) فِي جَوَانِيْكُمْ صَعْبٌ
 فَهَجَرِي لَكُمْ عَتْبٌ وَوَصْلِي لَكُمْ أَذْيَ
 فَلَا هَجْرُكُمْ هَجْرٌ وَلَا جُبُكُمْ حُبٌّ
 تَرَى الرَّجُلَ تَسْعَى بِي إِلَى مَنْ أَحِبَّهُ
 وَمَا الرَّجُلُ إِلَّا حَيْثُ يَسْعَى بِهَا الْقَلْبُ
 إِنَّ عَلَاقَاتِ الْمُحَبِّينَ لَيْسَ كُلُّهَا هَجْرٌ وَخَصَامٌ، فَفِيهَا
 أَيْضًا لقاءً ووصالاً الأمر الذي يوحى بالأمل والفرحة، إن
 العباس يعبر عن هذا الموقف تعبيراً لا يخلو من طرافـة، فهو
 يجعل اللقاء ضرباً من النعم، وهو يرى أنه بالشكر تدوم النعم
 في هذا القول الطريف:

(١) صرم: بعد وقطيعة.

(٢) قلـيـ: كره - بغضـ.

(٣) سهل القيادة.

زَادَكَ اللَّهُ سِرورًا إِنْ مَنْ
 كُنْتَ مُشْتَاقًا إِلَيْهِ قَدْ قَدِمْ
 عِشْ قَرِيرَ الْعَيْنِ مَسْرُورًا بِهِ
 فَيُزِيدُ اللَّهُ بِالشُّكْرِ النَّعْمَ

وحديث العيون لغة معروفة عند العشاق، لا يفهمه إلا العاشقان المتواجهان: الرضى والغضب، والسخط والعتب، والافصاح والكتمان، إلى غير ذلك مما دُربَ عليه العشاق ومارسه المحبون بحيث يتحدثون صمتاً ويفهمون حيث لا يفهم سواهم من الحاضرين. يقول العباس في هذا المقام:

تَحَدَّثُ عَنَا فِي الْوُجُوهِ عَيْوَنَنا
 وَنَحْنُ سُكُوتٌ وَالهُسُويٌّ يَتَكَلَّمُ
 وَنَغْضَبُ أَحْيَانًا وَنَرْضُى بِطَرْفِنَا
 وَذَلِكَ فِيمَا بَيْنَنَا لَيْسَ يُعْلَمُ
 إِذَا مَا أَتَقَيْنَا رَمْقَةً مِنْ مُبَلْغٍ
 فَأَغْيِنَنَا عَنَّا تُجِيبُ وَتَفَهَّمُ

إن العباس قد تمرس في الحب ومارسه فأصبح عاشقاً حُجَّةً في العشق، محباً ملماً بدقائق مواقف الحب، وهو هو يعود إلى التعبير عن لغة العيون مرة أخرى عند المحبين وحديثها فيقول:

يَدْلُّ عَلَى مَا بِالْمُحِبِّ مِنَ الْهَوَى
تَقْلُبُ عَيْنِيهِ إِلَى شَخْصٍ مَنْ يَهْوَى
وَإِنْ أَضْمَرَ الْحُبَّ الَّذِي فِي فُؤَادِهِ
فَإِنَّ الَّذِي فِي الْعَيْنِ وَالْوَجْهِ لَا يَخْفَى
وَهَا هُوَ يَجْعَلُ مِنْ نَفْسِهِ دَاعِيَةً لِلْحُبَّ، وَصَاحِبُ مَذْهَبٍ فِيهِ
يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، مُلْقِيًّا هَذَا الْمَذْهَبَ الطَّرِيفَ بَيْنَ أَيْدِيِ
الْخَلَيْنِ قَائِلًا:

تَحْبَبُ فَإِنَّ الْحُبَّ دَاعِيَةُ الْحُبَّ
وَكَمْ مِنْ بَعِيدٍ الدَّارِ مُسْتَوْجِبُ الْقُرْبِ
تَبَيَّنَ فَإِنْ حُدِثْتَ أَنَّ أَخَا هَوَى
نَجَا سَالِمًا فَارِجُ النَّجَاهَ مِنَ الْكَرْبِ
وَأَحْسَنَ أَيَّامِ الْهَوَى يَوْمَكَ الَّذِي
تُرَوَّعُ بِالْهَمْجُرَانِ فِيهِ وَبِالْعَتْبِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُبَّ سُخْطًا وَلَا رِضا
فَإِنَّ حَلَاوَاتُ الرَّسَائِلِ وَالْكُتُبِ

ويصر العباس على انتهاج طريق الحب والهوى وكأنه
يعطي العهد لا يعيش إلا عاشقا في إقامته وترحاله، وفي
سعيه وتطوافه، وفي حلمه وإحرامه، فهو يستصرخ فقهاء مكة
يستصدر منهم فتوى حيال عاشق محرم حول البيت. وتلك

لعمري ذروة التفاني في الحب والإصرار عليه مذهباً، فيطلب من الفقهاء هذا الطلب الطريف من خلال هذه الصيغة الشعرية الممتعة:

يَا أَفْلَ مَكَّةَ مَا يَرِي فُقَهَاؤُكُمْ
فِي عَاشِقٍ مُتَعَاهِدٍ لِسَلَامٍ
أَتَرَوْنَ ذَلِكَ ضَائِرَاً إِخْرَامَهُ
أَمْ لَيْسَ ذاكَ بِضَائِرِ الْإِحْرَامِ
الحق يُقال: إن العباس بن الأحنف واسع الباع طويل الذراع في تصوير مواقف العشق، حسن التصرف ظريف التعبير في توصيف مقامات الحب، رحب الخيال عبقري الإبداع في الغوص إلى أعماق النفس البشرية العاشقة.

مقومات شعر العباس كل صديق يرضي ويغضب
يتميز أسلوب العباس في شعره بالسهولة الممتعة، كما يمتاز
العباس نفسه بالنفس الطويل في الترجمة عن أحاسيس العشاق
ولواعج الأسواق ونفوس المعشوقات ووصف مواقف الحب
وإجراء الحوار بين المحبين في طلاقة وسلامة تجمع بين حلاوة
البداوة وطلاوة الحضر، فهو يجمع في شعره بين محاسن التقليد
وطرائف التجديد، وقد بلغ العباس حداً رفيعاً من الإجاده في
وصف المرأة وصفاً معنوياً غير حسي ولا جنسي لم يكدر ببلغه شاعر
آخر من الشعراء العاشقين مثل قوله:

لَوْ يُقْسِمُ اللَّهُ جُزْءاً مِنْ مَحَاسِنِهَا
فِي النَّاسِ طُرَأً لَتَمُّ الْحُسْنُ فِي النَّاسِ

أَبْصَرْتُ شَيْئاً بِمَوْلَاهَا فَسَوَّا عَجَباً
لِمَنْ يَرَاهَا وَيَبْلُو الشَّيْبُ فِي الرَّاسِ

واحترام المرأة وإجلال المحبوبة والبعد عن امتهانها، بل
مدامة الاحتفال بها وذلك أمر واضح في قوله:

إِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَهَا مَرَّةً
أَجْلَلَتَهَا أَنْ تَتَمَنَّاهَا

أو قوله في كثير من شعره حين يوجه إليها الخطاب
بـ «بسيدتي» تارة و « مليكي » تارة ثانية و « أميرتي » تارة ثالثة
كما في قوله :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْ مَلِينِكِي أَصَابَرُ
إِذَا غَبَّتْ عَنْهُ أُمَّ بَرِيقُ وَيَجْزُعُ
تَلَفَّتْ خَلْفِي حِيثُ لَمْ تَبْقَ جِيلَةً
وَزَوَّدَتْ عَيْنِي نَسْرَةً وَهُنَى تَذْمَعُ

أو قوله وقد جعل حبيبته أميرته :

بَخِلْتُ عَلَيَّ أَمِيرَتِي بِكِتابِهَا
وَتَبَدَّلْتُ بِصُدُودِهَا وَجِجَابِهَا

لقد أكثر الشعراء العاشقون من القول في تمجيد الحب
وإبداء الوله بالحبية، ولكن واحداً منهم لم يخلع عليها
صفات الاحترام وألبسة التكريم مثلما فعل العباس بن
الأحنف. والعباس يجمع طرف في الإجادة في القول من خلال
البحور الطويلة والقصيرة على حد سواء، وإن عاطفته لا تفتر
إذا ما استعمل البحور القصيرة، على عكس الحال عند غيره
من الشعراء :

إِنَّمَا أَبْكِي لَأَنِّي صِرْتُ لِلْحُبِّ تَبِيعَا
مَا دَعَانِي الشَّوْقُ إِلَّا ذَرَتِ الْعَيْنَ دُمْوعًا

ما أراني عن حبيبي آخر الدهر نزوعا
 أحسن الناس وأولى الناس بالحسن جميا
 بهذه الأبيات على قصر بحرها مشحونة بالعاطفة شحنة
 الأبيات الكثيرة التي مر ذكرها في الشكوى على البحور
 الطويلة. وديوان العباس مليء بالشعر القصير البحور المترع
 بالعواطف البعيد الأعمق. ويتقن العباس أساليب التندر
 والسخرية من خلال شعره الغزلي المفعم بالحرارة والحيوية:
 وانتُم بحمد الله فيكم فظاظة
 فكل ذلول في جوانبكم صعب
 أو قوله المتسم بالظرف والمرارة معا.

ما زلت أُسخِّر مِمَنْ يُحِبُّ مَنْ لا يُحِبُّه
 حتى ابتليت بمن لا يُحِبُّني وأحبُّه
 يهوى بعادٍ وهجرٍ ومنيتي الدهر قربه
 فليت قلبي له كان مثل مالي قلبه
 ويمتاز شعر العباس بوفرة الصور الغزلية، وغناه بها الى
 حد الترف إن لم يكن السرف، وهو في حاليه مقبول القول
 مأمون الغاية، ينسرب إلى النفس انسراياً، فمن صوره
 اللطيفة الكثيرة قوله:

يا رب لائمة يا فوز قلت لها
 واللوم فيك - لعمري - غير مختقر

مَا فِي النِّسَاءِ سُوْىٌ فَوْزٌ لَنَا أَرْبَعَ
فَأَرْضِي بِذَلِكَ أَوْ عُضِي عَلَى حَجَرٍ
كَمَا أَبْدَعَ صُورًا فَاتِنَةً أُخْرَى فِي صَاحِبِهِ ظُلُومٌ الَّتِي يَقُولُ
فِيهَا:

لَا تَلُومِي عَلَى ظُلُومٍ فَإِنَّ الـ
لُّومَ فِيهَا مُخَالَفٌ لِلسَّدَادِ
مُبْتَدَأُ الْحُسْنٍ صِيغَ مِنْهَا وَمِنْهَا
فُرُّقَ الْحُسْنُ فِي جَمِيعِ الْعِبَادِ
وَالْحَدِيثُ عَنِ الصُّورِ الْفَنِيَّةِ لِلْحُبِّ وَالْمُحْبُوبِ فِي شِعْرِ
الْعَبَاسِ يَصِلُّ بَنَاهُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ التَّشْبِيهَاتِ فِي غَزْلِهِ، وَكَمَا
أَنْ شِعْرَ الْعَبَاسِ غَنِيٌّ بِالصُّورِ، فَهُوَ غَنِيٌّ أَيْضًا بِالتَّشْبِيهَاتِ
الْأَنْيَقَةِ الْجَدِيدَةِ الْمُبْتَكَرَةِ، وَرَبِّما كَانَ بَعْضُهَا بَكْرًا لَمْ يَسْبِقْ
الْعَبَاسَ إِلَيْهَا شَاعِرٌ آخَرُ، وَذَلِكَ مُثْلُ قَوْلِهِ:

صَرَّتْ كَانَى ذُبَالَةً نَصِيبَتْ
تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَخْتَرِقُ
إِنَّهُ تَشْبِيهٌ حَضَارِيٌّ عَقْلَيٌ ثَقَافِيٌّ مَتَمَدِّنٌ، وَهُوَ جَدِيدٌ فِي
فَكْرَتِهِ وَصِياغَتِهِ. وَمِنَ التَّشْبِيهَاتِ الْحَضَارِيَّةِ الْأَنْيَقَةِ الَّتِي
تَفَتَّقَتْ عَنْهَا شَاعِرِيَّةُ الْعَبَاسِ بِقَوْلِهِ:

بَيْضَاءُ فِي حُمْرِ الثِّيَابِ كَوْرَدَةٌ
بَيْضَاءُ بَيْنَ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ

تَهْتَرُ فِي غَيْدٍ^(١) الشَّبَابِ إِذَا مَشَتْ
مِثْلَ اهْتِزَازِ نَوَاعِمِ الْأَغْصَانِ
أَوْ قَوْلَهُ مِنْ تَشْبِيهِ آخِرِ رَائِقِ الْمَعْنَى لَطِيفِ الصَّوْغِ مُتَلْفَعٍ
بِالْجِسْرِ الْحَضَارِيِّ :

ذَكَرْتِكَ بِالْتَّفَاحِ لَمَّا شَمَمْتُهُ
وَبِالرَّاجِ لَمَّا قَابَلْتُ أَوْجَةَ الشَّرْبِ
ذَكَرْتِ بِالْتَّفَاحِ مِنْكِ سَوْالِفَ
وَبِالرَّاجِ طَعْمًا مِنْ مُقْبَلِكِ الْعَذْبِ
وَيُشَبِّهُ الْعَبَاسُ صَاحِبَتِهِ بِالْقَمَرِ أَوِ الْهَلَالِ حِينًا، وَبِالشَّمْسِ
أَحْيَانًا، وَهُوَ يَكْثُرُ الْقُولُ فِي تَشْبِيهِهَا بِالشَّمْسِ، ثُمَّ يَعْدِلُ إِلَى
فَنَوْنَ أُخْرَى مِنَ التَّشْبِيهَاتِ الْطَّرِيفَةِ الْمُبَدِّعَةِ الَّتِي تَتَأْرِجُحُ بَيْنَ
الثَّبَاتِ وَالْحَرْكَةِ وَذَلِكُ فِي قَوْلِهِ :

إِنِّي طَرَبْتُ إِلَى شَمْسٍ إِذَا طَلَعْتُ
كَانَتْ مُشَارِقُهَا جَوْفَ الْمَقَاصِيرِ
شَمْسٌ مُمَثَّلٌ فِي خَلْقِ جَارِيَةٍ
كَانَمَا كَشْحُهَا^(٢) طَيِّ الْطَّوَامِير^(٣)

(١) غَيْدَ غَيْدًا : تَمَاهِيلُ وَتَشْتِئُ فِي لِينٍ وَنُعُومَةٍ.

(٢) مَا بَيْنَ الْخَاصَرَةِ وَالْمُضْلَوَعِ .

(٣) الصَّحْفَ . وَالْكُتُبَ - ج. طَامُور وَطَوْمَار وَهُوَ الصَّحِيفَة.

لِيْسْ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا فِي مُنْاسِبَةٍ
 وَلَا مِنَ الْجِنْوْنِ إِلَّا فِي التَّضَارِيرِ
 فَالجَسْمُ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَالشَّغْرُ مِنْ ظُلْمٍ
 وَالنَّشْرُ مِنْ مِسْكَةٍ وَالسُّوجَةُ مِنْ نُورٍ
 كَانَهَا حِينَ تَمْشِي فِي وَصَائِفَهَا
 تَخْطُو عَلَى الْبَيْضِ أَوْ خُضْرِ الْقَوَارِيرِ

ولقد افتتن كثير من النقاد بالتشبيه الذي ضمنه العباس
 البيت الأخير بحيث ان أكثر الذين ترجموا للعباس أو احتفلوا
 بشعره قد منحوا هذا التشبيه اهتماماً خاصاً. وتسع دائرة
 التشبيهات عند العباس فتشمل كل ما يتصل بالعاشق
 والمعشوق من رسائل وكتب ولباس وزينة وأدوات. فهذا
 خاتم لقى نصيباً من مداعة الحبيب، فكان ذلك حافزاً
 لشاعرية العباس أن تنطلق وتقدم لنا هذا التشبيه البديع:

خَاتَمٌ لِي مَا لَهُ أَثْرٌ
 فِيهِ مِنْ عَضْرِ الْحَبِيبِ أَثْرٌ
 سَطَعَتْ بِالْمَسِكِ دَارَتْهُ
 وَأَضَاءَتْ مِثْلَ ضَرْعَ قَمَرٍ
 فَهُوَ كَالْتَعْوِيدِ فِي عَضْدِ
 صُنْتَهُ كَيْ لَا يَرَاهُ بَشَرٌ

ليس من شك أن العباس بن الأحنف صاحب ذوق رفيع وحس مرهف وشاعرية لبقة وتصرف حسن في خلق التشبيهات وابتداعها، وتلك طبيعة الفنان الأصيل، وليس هناك من خلاف على أصالة العباس في فنه وحسه وذوقه.

والحديث عن التشبيهات عند العباس، وهي ضرب من البيان يجرنا إلى الحديث عن الصنعة البدعية. رغم أن العباس لم يكن به تحمس للفنون البدعية بشكل ملحوظ إلا من خلال الطباق والمقابلة، فإنه يكثر منها غير معتمد وإنما يأتي على لسانه بصورة عفوية، ويستخدمها في خدمة المعاني مستهدفاً إثراها. فقد يصادف القارئ لشعر العباس شيئاً من الجناس غير التام مثل قوله:

قَالَتْ ظُلُومٌ سَمِيَّةٌ الظُّلُمُ
مَا لِي رَأَيْتُكَ نَاجِلَ الْجَسْمَ
أو قوله:

فَلَوْ قَدْ تَسْوَلَى وَسَارَ الْحَبِيبُ
لَكَانَ مَكَانَ دَمْوعِي دَمُ
فالجناس الناقص كما نرى في ظلوم وظلم، وفي كان ومكان، ودموع ودم.

وقد يصادف مراعاة الناظير في مثل قوله:

وفي العشقِ كاسانِ مَسْمُوفَتَا
 نِ طغْمُهُما الصَّابُ^(١) والعلقمُ
 فِإِخْدَاهُمَا كَأسُ هَجْرِ الْجَبِيبِ
 وَكَأسُ الْفِرَاقِ هِيَ الصَّيْلُمُ^(٢)
 قد يصادف القارئ شيئاً من ذلك في شعر العباس، ولكنه
 قليل غير ذي جلبة أو ضوضاء، وأما الذي يكثر منه من فنون
 البديع فهو الطباق والمقابلة مثل قوله:
 وَمُسْعِدٌ جَاءَ مَسْرُوراً بِتَهْبَيَةٍ
 فَلَمْ يَرْمِ أَنْ بَكَى حُزْنًا وَعَزَّازًا
 وَشَارِبُ الْحُبُّ وَرَدُّ الْمَوْتِ غَايَتُهُ
 وَقَدْ وَجَدْتُ أَمْرَ الْحُبُّ أَخْلَأً
 أو قوله:

يَا وَنْحَ مَنْ عَلَقَ الْأَجْبَةَ قَلْبَهُ
 حَتَّىٰ إِذَا ظَفَرُوا بِهِ قَتَلُوهُ
 عَزُّوا وَمَالَ بِهِ الْهَوَى فَأَذَلَّهُ
 إِنَّ الْعَزِيزَ عَلَى الْذَّلِيلِ يَتَيَّهُ
 ولعل ذروة الصنعة البديعية غير الثقيلة في نطاق الطباق
 والمقابلة تتمثل في الأبيات التالية المشحونة بالمرارة بحيث

(١) نبات ذو طعم مرّ.

(٢) الكاثرة.

عمد الشاعر إلى الاتيان بالصفة وعكها، والخلة ونقضها، ليرسم صورة واضحة المعالم لصاحبته الملولة التي لا تثبت على حال والنائمة للعهد المتقلبة المزاج، التي تصدر عن منطق منحرف ومنطلق معوج، يقول العباس:

وَصَالُكُمْ صَرْمٌ^(١) وَحِبُّكُمْ قَلَى^(٢)
 وَغَطْفُكُمْ صَدٌ^(٣) وَسِلْمُكُمْ حَرْبٌ
 وَأَنْتُم بِحَمْدِ اللَّهِ فِيْكُمْ فَظَاظَةٌ^(٤)
 فَكُلُّ ذَلُولٍ^(٥) فِي جَوَانِيْكُمْ صَعْبٌ
 فَهَجَرِي لَكُمْ عَتْبٌ وَوَصْلِي لَكُمْ أَذَىٰ
 فَلَا هَجْرُكُمْ هَجْرٌ وَلَا حِبُّكُمْ حُبٌّ

لقد كان العباس يستخدم البديع حيث يحلو استخدامه، ويعرض عنه إذا أحسن أنه يؤدي إلى الإخلال برونق الصورة الشعرية أو جوهر المعنى الذي يهدف إليه.

هذا والعباس كواحد من أرق الشعراء الغزلين يحسن صياغة الحوار الشعري، ويتقن صناعة الحديث على لسان معشوقته^(٦)، والظاهرة الطريقة عند العباس هي إجراء الحوار

(١) قطيعة. (٢) بعض وكراه. (٣) هجران وبعد.

(٤) جلف - خشن الطابع. (٥) سهل القيادة.

(٦) انظر الديوان صفحات ١٧٧ - ١٧٨ - ٢٧ ، ١٩٧ .

بين العينين والقلب لإظهار أيهما جنى عليه ورزاه^(١) بالحب الذي برى جسمه وأضنى قلبه ونفسه، فمن ذلك قوله:

إذا لَمْتُ عَيْنِي اللَّتِينَ أَضَرْتَا
بِجَسْمِي فِيْكُمْ قَالَا لِي: لَمْ الْقَلْبَا
فَإِنْ لَمْتُ قَلْبِي قَالَ: عَيْنَاكَ هاجَتَا
عَلَيْكَ الَّذِي تَلْقَى، وَلَيْ تَجْعَلُ الدَّنْبَا
وَقَالَتْ لَهُ الْعَيْنَانِ: أَنْتَ عَشِيقَتَهَا
فَقَالَ: نَعَمْ أُورْثَمَانِي بِهَا عَجْبَا
فَقَالَتْ لَهُ الْعَيْنَانِ: فَاكْفُفْ عَنِ التِّي
مِنَ الْبُخْلِ مَا تَسْقِيكَ مِنْ رِيقَهَا عَذْبَا
فَقَالَ فَوَادِي: عَنِكِ «لَوْ تُرَكَ الْقَطَا
لَنَامَ» وَمَا بَاتَ الْقَطَا يَخْرِقُ السَّهْبَا
ومجمل القول في العباس بن الأحنف أنه شاعر الغزل في العصر العباسي، لقد عاش حياته للحب والشعر، وسخر ملكته الفنية السخية للفن وحده، يُسعد به الناس دون أجر، ويدخل السلوى إلى قلوب العشاق دون جزاء، فلم يمدح عظيماً أو صاحب سلطان، ولم يهج خصماً أو حاقداً أو مبغضاً، فكان قيثارة عذبة الایقاع على شفتي الزمان، وطائراً

(١) أي ابتلاء به.

غريداً يشدوا بأرق الأنغام وأعذب الألحان. كانت حياته مسرحية عاطفية رائعة تخللتها حرارة الحب، ومرارة الصد، وحرقة الشكوى، ولوحة العشق، وفرحة الوصول، وأمل اللقاء، ومشاهد الحرمان. كان الرجل يتنفس حباً، ويفكر حباً ويحيا حباً، ثم مات حباً، فكانت وفاته قصة محزنة مفجعة، فقد وافته المنية غريباً وحيداً مسافراً على طريق الحجيج، وأُسهم في مشهد وفاته غلامه وطائر حزين، ثم شارك في تكفيه والصلاوة عليه قافلة من حجيج بيت الله. لقد روى لنا الأصممي قصة وفاته فقال:

بِينَا أَنَا ذَاتِ يَوْمٍ قَاعِدٌ فِي مَجْلِسِ الْبَصْرَةِ، إِذَا أَنَا بِغَلامٍ أَحْسَنَ النَّاسَ وَجْهًا وَثُوبًا وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِيِّ، فَقَالَ: إِنَّ مُولَايِ يَرِيدُ أَنْ يُوصِي إِلَيْكَ، فَقَمَتْ مَعَهُ، فَأَخْذَ بِيَدِي حَتَّى أَخْرَجْنِي إِلَى الصَّحْرَاءِ، إِذَا أَنَا بِالْعَبَاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ مُلْقِيَ عَلَى فَرَاشِهِ، وَإِذَا هُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

يَا بَعِينَدَ الدَّارِ عَنْ وَطَنِهِ
مُفْرَداً يَبْكِي عَلَى شَجَنِهِ
كَلَّمَا شَدَّ النَّجَاءُ^(۱) بِهِ
دَارِتِ الأَسْقَامُ فِي بَذَنِهِ

(۱) ألم الحب.

وما لبث أن أغمي عليه، ثم انتبه على صوت طائر على
شجرة وهو يقول:

وَلَقَدْ رَأَدَ السَّفَوَادَ شَجَنَّ
هَاتِفٌ يَبْكِيُ عَلَى فَنَنِيهِ
شَاقَةٌ مَا شَاقَنِي فَبَكَى
كُلُّنَا يَبْكِيُ عَلَى سَكَنِيهِ

ثم أغمي عليه فظننتها مثل الأولى، فحركته فإذا هو ميت.

وروى المسعودي القصة في شكل آخر على طريق
الحجيج حيث استدعى غلام العباس بعض الحجاج المارة
الذين حضروا وفاته وقاموا على دفنه، غير أن الروايتين
متفقتان في الشعر الذي أنسده العباس قبل الإغماء، والشعر
الذي أنسده عند سماعه صوت الطائر، وهكذا يكون العباس
قد عاش حياته شعراً وعشقاً، وتنفس طوال حياته حباً
وشعراً، وها هو يسلم روحه على قارعة الطريق وهو ينشد
شعراً وي بكى حباً ويدوب وجداً وعشقاً.

آراء أكبار الأدباء والفنانين في العباس

ولئن عاب بعض الناس على العباس أنه قصر شعره على الغزل وجعلوا من ذلك علامه قصور وقصير، فإن كبير بلغاء العربية أبا عثمان الجاحظ يجعل من ذلك آية نبوغ وعقرية حين قال: (لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم، وأوسعهم كلاماً وخاطراً، ما قدر أن يجعل شعره في مذهب واحد لا يجاوزه، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتکسب ولا يتصرف، وما نعلم شاعراً واحداً لزم فناً واحداً لزومه فأحسن فيه وأكثر). ولم يكن الجاحظ وحده المعجب بشاعرية العباس بن الأحنف المأخذ برقه معانيه المفتون بعذوبة شخصيته، بل إن كثيرين غيره من ذوي القدر الرفيع من أدباء العربية ونقادها يشاركون الجاحظ رأيه هذا، ولا نجد نحن مفرأ إلا أن نشاركهم آراءهم فيه ونشاطرهم تمجيدهم وإياه وإعجابهم به.

إن الأصمسي كثیر رواة الشعر العربي وصاحب الأخبار الطريفة والنواذر العذبة يسأل عن أحسن ما يحفظ من شعر المحدثين، فيقول: قول العباس بن الأحنف:

لو كنت عاتبةً لسكنِ روعتي
أُملي رضاكِ وزرتُ غيرَ مُرافقٍ

لَكِنْ مَلِّتْ فَلَمْ تَكُنْ لِي حِيلَةٌ
 صَدُّ الْمَلُولِ خِلَافُ صَدُّ الْعَاتِبِ
 مَا ضَرَّ مَنْ قَطَعَ الرِّجَاءَ بِسُخْلِهِ
 لَوْ كَانَ عَلَّتْنِي بِوَعْدِ كَاذِبِ
 الْهَمُ أَضَبَحَ يَا ظَلَومَ مُقَارِنِي
 وَالْهَمُ شَرُّ مُقَارِنِ وَمُصَاحِبِ

وهذا عبد الله بن المعتز يبني استحسانه لشعر العباس بن الأحنف وافتاته بمعانيه حين يردد قول العباس:

أُخْرَمْ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ
 نَالَ بِسِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشِقُوا
 صِرْتُ كَائِنِي ذُبَالَةً نُصِبْتُ
 تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ

وينبئي ابن المعتز إعجابه بقوله: ان هذا القول من بديع ما للعباس وطريقه ومما ليس لأحد في معناه شيء يدانيه.

وكان المغني الأديب الفنان إبراهيم الموصلي كثير الإعجاب بشعر العباس حتى انه لم يُغَنِّ في شعر أحد من الشعراء أكثر مما غنى في شعر ذي الرمة والعباس بن الأحنف، لأن شعر ذي الرمة خير ما يمثل صفاء البداوة وبراءتها، ولأن شعر العباس خير ما يمثل رقة الحضارة

وحرارة وجدانها. وأما إسحاق الموصلي بن ابراهيم الموصلي ، وهو ذروة مِنْ ذرٍ الأدب والشعر والنقد والعزف والغناء والحكمة في تيار الحضارة العباسية، فكان من الإعجاب بشاعرنا بحيث لا يفتأ يردد قوله:

فَإِنَّمَا خَبَرَنِي أَهْلُ الْرَّجْلَانِ
عَنِ النَّوْمِ إِنَّ الْهَجَرَ عَنِّهِ نَهَانِي
وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْمُ أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ
صِفَا النَّوْمَ لِي إِنْ كُتُمْمًا تِصْفَانِ
وَإِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَى النَّوْمِ فَاعْلَمَا
وَلَا عَهْدٌ لِي بِالنَّوْمِ مِنْذُ زَمَانِ

وهذا شيخ الشعراء المخضرمين وإمام مدرسة المحدثين بشار بن برد يسمع قول العباس:

يَا أَهْلَهُ الرَّجُلُ الْمُعَذَّبُ نَفْسُهُ
أَقْصِرُ فَإِنَّ شِفَاءَكَ الْإِقْصَارُ
نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمْوعَ عَيْنِكِ فَاسْتَعِرْ
عَيْنَا يُعِينُكَ دَمْعُهَا الْمِذْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تُبْكِي بِهَا
أَرَأَيْتَ عَيْنَنَا لِلْبُكَاءِ تُغَارِ؟

فلا يلبث أن يعلق قائلًا: ما زال غلام من بنى حنيفة يدخل
نفسه فينا ويخرجها حتى قال هذا الشعر.
وإن الشاعر الكبير أبا العتاهية، يقول في العباس بن
الأحنف: ما حسدت أحداً إلا العباس بن الأحنف في قوله:
إذا امتنعَ الْقُرِيبُ فَلَمْ تَنْلُهُ

على قُرْبٍ فَذَاكَ هُوَ الْبَعِيدُ
فإنني كنتُ أولى به منه، وهو بشعري أشبه منه بشعره...
وإن ابن خلkan يختار في ترجمته للعباس بعض شعره ويقدم
هذه الأبيات كعنوان على شاعريته وتقديمه على غيره من
الشعراء في شعر الغزل العفيف:

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرِزْدَنِي
جُنْتُونَا فَرِزْدَنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ
هَوَاهَا هَوَى لَمْ يَعْرِفِ الْقَلْبُ غَيْرَهُ
فَلَيْسَ لَهُ قَبْلٌ وَلَيْسَ لَهُ بَعْدٌ
ويروي الأصبهاني عن ابراهيم الصولي قوله في الاعجاب
بشعر خاله العباس بن الأحنف قوله: ما رأيت كلاماً محدثاً
أجزل رقة ولا أصعب سهولة ولا أبلغ في ايجاز من قول
العباس بن الأحنف:

تعالي نُجَدَّدْ دَارِسَ الْعَهْدِ بَيْتَنَا
كِلَانَا عَلَى طُولِ الْجَفَاءِ مَلُومٌ

وبناءً على ذلك بقوله:

أَبْكِي الَّذِينَ أَذَقُونِي مَوَدَّتَهُمْ
حَتَّى إِذَا أَيْقَظُونِي لِلْهَوِي رَقَدُوا
وينشد إبراهيم الصولي من شعر حاله لأبي حاتم
السجستاني هذه الأبيات:

وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَفَلْنَاها
مَا رَقَ لِلْوَلِدِ الْمُضِعِيفِ السَّوَالِدُ
وقوله:

لَكُنْ مَيْلَتْ فَلَمْ تَكُنْ، لِيَ حِيلَةُ
صَدُّ الْمُلُولِ، خِلَافُ صَدُّ الْعَاتِبِ
وقوله:

حَتَّى إِذَا اقْتَحَمَ النَّفَتِي لُجَجَ الْهَوِي
جَاءَتْ أَمْسُورٌ لَا تُطَاوِي كِبَارٌ
ويمضي إبراهيم قائلاً لأبي حاتم: هذا والله ما لا يقدر
أحد أن يقول مثله أبداً.

وسُئل أبو نواس عن العباس وقد ضمهما مجلس فقال: هو
أرق من الوهم وأحسن من الفهم.

وقيل «لعنان» جارية الناطفي، وكانت شاعرة وأديبة: من
أشعر الناس؟ قالت: الذي يقول:

وأهْجِرُكُمْ حَتَّى يَقُولُوا لَقَدْ سَلَّا
وَلَسْتُ بِسَالٍ عَنْ هَوَاهِ إِلَى الْحَشِيرِ

ولكن إذا كان المحب على الذي
يُحِبُّ شَفِيقًا نَازَعَ النَّاسَ بِالْهَجْرِ

وجاء في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني،
... ومن أخبار العباس بن الأحنف، «... وكان شاعراً
غَزِلاً ظريفاً مطبوعاً، من شعراء الدولة العباسية. وله مذهب
حسن. ولديباجة شعره رونق، ولمعانيه عذوبة ولطف. ولم
ي肯 يتتجاوز الغزل إلى مدح أو هجاء، ولا يتصرف في شيء
من هذه المعاني».

وقدّمه أبو العباس المبرّد في كتاب «الروضة»⁽¹⁾ على
نظائه، وأطنب في وصفه. حيث يقول: ... وكان من
الظرفاء ولم يكن من الخلقاء. وكان غَزِلاً ولم يكن فاسقاً،
وكان ظاهر النعمة، ملوكي المذهب، شديد الترف، وذلك
بَيْنَ فِي شِعْرِهِ وَقِيلَ: كَانَ مِنْ عَرَبِ خَرَاسَانَ وَمِنْشُؤَهُ
بِبَغْدَادِ ...

(1) وهو من الكتب المفقودة.

وذكر ان سعيد بن حميد^(١) كان يقول: ما أعرف أحسن من شعر العباس بن الأحنف في اخفاء أمره، حيث يقول في ذلك:

أَرِيدُكَ بِالسَّلَامِ فَأَتَقِيمُهُمْ
فَأَعْمَدُ بِالسَّلَامِ إِلَى سِواكِ
وَأَكْثَرُ فِيهِمْ ضَحْكًا لِيَخْفِي
فَسْنِي ضَاحِكًا وَالْقَلْبُ باكِي

هذا ما كان من شأن اعجاب الأقدمين من الأدباء والنقاد في تقييم شعر العباس بن الأحنف وإبداء الاعجاب به، غير ان شخصية العباس وخلقه وسلوكه لم تكن تقل رقة وعدوية ونقائة عن رقة شعره وعدوبته ونقائه، فلقد كان حسبيما وصفه محمد بن عامر الحنفي - شاعراً ظريفاً مفوهاً منطبقاً مطبوعاً، وكان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة، وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه، وكان جواداً لا يقى المال في يديه ولا يحبس ما يملك.

ويصفه إبراهيم بن العباس الصولي - وكان وثيق الصلة به بحكم كونه ابن أخيه فيقول: كان والله إذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت، وكان فصيحاً جميلاً ظريف اللسان، لو شئت أن تقول إن كلامه كله شعر لقلت.

(١) كاتب وأديب عباسي كان كثير الاغارة على من سبقه.

ولا بد من القول: إن شعر العباس ينماهى في اللطف ورقة الشعور، وجمال الدبياجة، ومتانة التركيب، ومقاطعه كلها من السهل الممتنع، على أن قصائده لا تخلو من الفاظ يحتاج معها مطالعها الى المعجم. أما معانيه فهي تلك المعاني التي كانت في أيامه، غير أنه أبرزها في حلقة جميلة صافية، حسنة الإيقاع تلذ القلب والأذن وتعلق بالأذهان في سهولة ويسرٍ. تلك كانت صفات أبي الفضل العباس بن الأحنف وسمات شعره، نرجو أن تكون قد أوفيناها حقه، واستطعنا أن نعطي فكرة واضحة عن حياته وأدبه وشخصه.

والله ولي التوفيق.

نماذج من شعره

زين النساء

أَرَيْنَ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ أَحِبِّي
دُعَاءً مَعْشُوقٍ بِالْعِرَاقِ غَرِيبٍ
كَتَبْتُ كِتَابِي مَا أَقِيمُ حُرُوفَهُ
لِشِلَّةٍ إِعْوَالِي وَطُولِي نَحِبِّي
أَخْطُ وَأَمْحُو مَا خَطَطْتُ بِغَبَرَةٍ
تَسْحُّ عَلَى الْقُرْطَاسِ سَحَّ غُرُوبٍ^(١)
أَيَا فَوْزٌ لَوْ أَبْصَرْتِنِي مَا عَرَفْتِنِي
لَطُولِ شُجُونِي بَعْدَكُمْ وَشُحُوبِي^(٢)
وَأَنْتِ مِنَ الدُّنْيَا نَصِيبِي فِإِنْ أَمْتُ
فَلَيْتَكِ مِنْ حُورِ الْجَنَانِ نَصِيبِي
سَأَحْفَظُ مَا قَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَأَرْغَاعُكُمْ فِي مَشْهَدِي وَمَغِيبِي

(١) الغروب، الواحدة غرب: الدلو العظيمة.

(٢) الشحوب: تغير اللون، فهو يميل لونه إلى اصفار.

وَكُنْتُمْ تَزِينُونَ الْعِرَاقَ فَشَانَه
 تَرْحُلُّكُمْ عَنْهُ وَذَاكَ مُذِيبِي^(١)
 وَكُنْتُمْ وَكُنَّا فِي جَوَارِ بِغْبَطَةِ
 نُخَالِسُ لِحَظَّ الْعَيْنِ كُلَّ رَقِيبِ^(٢)
 فَإِنْ يَكُنْ حَالُ النَّاسِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
 فَإِنَّ الْهُوَى وَالْوَدُّ غَيْرُ مَشُوبٍ^(٣)
 فَلَا ضَعِيكَ الْوَاشُونَ يَا فُوزُ بَعْدَكُمْ.
 وَلَا جَمَدَتْ عَيْنُ جَرَتْ بِسَكُوبٍ
 وَإِنِّي لَأَسْتَهْدِي الرِّيَاحَ سَلَامَكُمْ
 إِذَا أَقْبَلْتَ مِنْ نَحْوِكُمْ بِهَبُوبٍ
 وَأَسَّالَهَا حَمْلَ السَّلَامِ إِلَيْكُمْ
 فَإِنْ هِيَ يَوْمًا بَلَغْتَ فَأَجِنِّي
 أَرَى الْبَيْنَ يَشْكُوَهُ الْمُجْبَوْنَ كُلُّهُمْ
 فِي رَبِّ قَرْبٍ دَارَ كُلُّ حَبِيبٍ^(٤)

(١) شانه: أي عابه.

(٢) نخالس: نسالب، نخاتل.

(٣) غير مشوب: هنا أعاد الضمير إلى الْوَدُّ وحده. المشوب: المخلوط المغشوش.

(٤) البين: الفراق، البعد.

وأبيضَ سَبَاقٍ طَوِيلٍ نَجَادُه
 أَشْمَ خَصِيبٍ الرَّاحِتَيْنِ وَهُوبٌ^(١)
 أَنَافِ بِضَبْعَيْهِ إِلَى فَرْعَ هَاشِمٌ
 نَجِيبٌ نَمَاءً مَاجِدٌ لَنَجِيبٌ^(٢)
 لَحَانِي فَلَمَّا شَامَ بَرْقِي وَأَمْطَرَتْ
 جُفُونِي بَكَى لِي مَوْجَعًا لَكُرُوبِي^(٣)
 فَقَلَتْ أَعْبَدَ اللَّهَ أَسْعَدَ ذَا هَوَىٰ
 يُحَاوِلُ قَلْبًا مُبْتَلَى بَنُوكُوبِ^(٤)
 سَأْسِيقَ نَذْمَانِي بِكَأسِ مِزاجِهَا
 أَفَانِينُ دَمْعٍ مُسْبَلٍ وَسَرُوبٌ^(٥)
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْحُبُّ أَخْلَقَ جِدَّتِي
 وَشَيْبَ رَأْسِي قَبْلَ حِينِ مَشِبِّي^(٦)

(١) طَوِيلُ النَّجَاد: كُنْيَةُ عَنْ طُولِ الْقَامَةِ، وَالنَّجَاد: حَمَالَةُ السِّيفِ. الْأَشْمَ: السَّيْدُ ذُو الْأَنْفَةِ.

(٢) نَمَاء: نَسْبَهُ، رَفْعَ نَسْبَهِ.

(٣) لَحَانِي: لَامِنِي. شَام: رَأْيِي.

(٤) لَعْلَهُ أَرَادَ بَعْدَ اللَّهِ الَّذِي وَصَفَهُ بِتَلْكَ الصَّفَاتِ الْحَسَنَةِ الْعَامُونَ بْنَ هَارُونَ الرَّشِيدِ، أَوْ أَنَّهُ أَرَادَ نَدِيمًا اسْمَهُ كَذَلِكَ.

(٥) السَّرُوب، عَلَى وَزْنِ فَعُولِّ مِنْ سَرْبِ الْمَاءِ يَسْرُبُ، إِذَا جَرِيَ وَسَالَ.

(٦) أَخْلَقَ، جَعَلَهُ خَلِيقًا: أَيْ قَدِيمًا وَبَالِيًّا.

ألا إِيَّاهَا الْبَاكُونَ مِنْ أَلْمٍ الْهَوِي
 أَظْنُكُمْ أَدْرِكْتُمْ بِذُنُوبِ^(١)
 تَعَالَوا نُدَافِعُ جُهْدَنَا عَنْ قُلُوبِنَا
 فَيُوشِكُ أَنْ تَبْقَى بِغَيْرِ قُلُوبِ
 كَأَنْ لَمْ تَكُنْ فَوْزٌ لِأَهْلِكَ جَارَةً
 بِأَكْنَافِ شَطِّ أَوْ تَكَنْ بَشَّابِ^(٢)
 أَقُولُ وَدَارِي بِالْعِرَاقِ وَدَارُهَا
 حِجَازِيَّةً فِي حَرَّةٍ وَسُهُوبِ^(٣)
 وَكُلُّ قَرِيبٍ الدَّارِ لَا بُدُّ مَرَّةً
 سَيُصْبِحُ يَوْمًا وَهُوَ غَيْرُ قَرِيبٍ
 سَقَى مَنْزَلًا بَيْنَ الْعَقِيقَةِ وَوَاقِمِ
 إِلَى كُلِّ أَطْمَمِ بِالْحِجَازِ وَلُوبِ^(٤)
 أَجَشُ هَزِيمُ الرُّعْدِ دَانِ رَبَابِهِ
يَجْرُودُ بِسُقْبَا شَمَائِلِ وَجَنُوبِ^(٥)

(١) ذُنُوب: اسم موضع بعينه، إذا كانت الذال بالفتح، أما إذا كانت بالضم فيكون المعنى أن ما أصابكم إنما هو بسيبي.

(٢) شط: قرية باليمنة. النَّيْب: القريب.

(٣) الحرَّة: أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحترقت بالنار. السُّهُوب، الواحد سهُوب: أي الفلاة.

(٤) العقيق وواقِم: موضعان في الحجاز. الأطم: الحصن. اللوب، الواحدة لابه: الحرَّة من الأرض.

(٥) الْهَزِيم: صوت الرعد كأنه يتكسر، رَبَابَه: سحابه الأبيض.

أَزْوَارَ بَيْتِ اللَّهِ مُرَوَا بَيْشِرِبٍ
 لِحَاجَةِ مَتْبُولِ الْفُؤَادِ كَئِيبٍ^(١)
 إِذَا مَا أَتَيْتُمْ يَشْرِبًا فَابْدَأُوا بِهَا
 بِلْطَمِ خَدُودٍ أَوْ بَشَقِّ جَيْوبٍ^(٢)
 وَقُولُوا لَهُمْ يَا أَهْلَ يَشْرِبٍ أَسْعَدُوا
 عَلَى جَلْبِ الْحَادِثَاتِ جَلِيبٍ
 فَإِنَّا تَرَكْنَا بِالْعِرَاقِ أَخَا هَوَى
 تَنَشَّبَ رَهْنَا فِي جِبالِ شَعُوبٍ^(٣)
 بِهِ سَقَمُ أَعْيَا الْمُدَاوِينَ عَلْمُهُ
 سَوْيَ ظَنْهُمْ مِنْ مَخْطَىٰ وَمُصِيبٍ
 إِذَا مَا عَصَرْنَا الْمَاءَ فِي فِيهِ مَجَهَهُ
 وَإِنْ نَحْنُ فَادِينَا فَغَيْرُ مُجِيبٍ^(٤)
 تَأْنُوا فِي بُكُونِي صُرَاحَا بِنَسْبَتِي
 لِيَعْلَمَ مَا تَعْنُونَ كُلُّ غَرِيبٍ
 فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفْعَلُوا ذَاكَ تَأْتِكُمْ
 أَمِينَةً خَوِيدَ كَالْمَهَاءِ لَغُوبٍ

(١) المتبول: السقيم.

(٢) شعوب: علم للمنية.

(٣) مجّه: كرهه، لم يستطع طعمه.

عَزِيزٌ عَلَيْهَا مَا وَعَتْ غَيْرُ أَنَّهَا
 نَسَاتُ وَبَنَاتُ الدُّهْرِ ذَاتُ خَطُوبٍ^(١)
 فَقُولُوا لَهَا: قُولِي لَفْوِزٌ تَعْظُّفِي
 عَلَى جَسَدٍ لَا رُوحَ فِيهِ سَلِيبٌ
 خَذُوا لِي مِنْهَا جُرْعَةً فِي رُجَاجَةٍ
 أَلَا إِنَّهَا لَوْ تَعْلَمُونَ طَبِيبِي
 وَسِيرُوا فِيَانِ أَدْرَكْتُمْ بِي حُشَاشَةٍ
 لَهَا فِي نَوَاحِي الصَّدَرِ وَجَسْ دَيْنِبٍ^(٢)
 فَرُشُوا عَلَى وَجْهِي أَفْقٌ مِنْ بَلَيْتِي
 يُثِيبُكُمْ دُوَّالَعَرْشِ خَيْرُ مُثِيبٍ
 فِيَانَ قَالَ أَهْلِي مَا الَّذِي جَثَّتُمْ بِهِ
 وَقَدْ يُخْسِنُ التَّعْلِيلَ كُلُّ أَرِيبٍ^(٣)
 فَقُولُوا لَهُمْ جَثَنَاهُ مِنْ مَاءِ زَمَزَمِ
 لَنَشْفِيهِ مِنْ دَاءِ بَهْ بَلَنْسُوبٍ
 وَإِنْ أَنْتُمْ جَثَّتُمْ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَكُمْ
 وَبَيْنِي بِيَوْمِ لِلْمَنْتُونِ عَصِيبٌ

(١) بنات الدهر: حوادث.

(٢) الوجس: الصوت الخفي.

(٣) أريب: درب، صار ماهراً بصيراً، خبيراً.

وَصِرْتُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى قَعْدِ حُفْرَةٍ
حَلِيفٌ صَفِيعٌ مُسْطَبَقٌ وَكَثِيبٌ^(١)
فَرَشَوْا عَلَى قَبْرِي مِنَ الْمَاءِ وَأَنْدَبُوا
قَتِيلَ كَعَابٍ لَا قَتِيلَ حَرُوبٍ^(٢)

(١) الصَّفِيعُ: أَرَادَ بِهَا حِجَارَةَ الْقَبْرِ. الْكَثِيبُ: تِلُ الرَّوْمَلِ.

(٢) الْكَعَابُ: حِجَارَةٌ كَاعِبٌ، الْفَتَاهُ فِي إِبَانِ بَلْوَغِهَا.

كل صديق يرضي ويغضب
 ألم تعلمِي يا فوزُ أني مُعذَّبُ
 بحبكُمُ والتحينُ للمرءِ يُجلبُ^(٣)
 وقد كنتُ أبكيكُمْ بِيَثْرِبَ مَرَّةً
 وكانتْ مُنِي نفسي منَ الأرضِ يُثْرِبَ
 أَمْلُكُمْ حتَّى إذا ما رَجَفْتُمْ
 أَتاني صدودُ منْكُمْ وَتَجَنَّبَ
 فإنْ ساءَكُمْ ما بي منَ الضُّرِّ فارحُمُوا
 وإنْ سرَّكُمْ هذا العذابُ فَعَذَّبُوا
 فأصبحتُ مما كانَ بيني وبينَكُمْ
 أحَدُثُ عَنْكُمْ منْ لقيتُ فَيَغْجَبَ
 وقد قالَ لي نَاسٌ تحملُ دلالَهَا
 فكُلُّ صديقٍ سُوفَ يَرضي ويغضبُ
 وانِي لِأقلَى بَذلَ غِيرِكِ فَاعلمِي
 وبُخْلُكِ في صدري الْذُّ وأطِيبُ^(٤)

(١) العين: الهلاك.

(٢) أقلى: أبغض.

وَإِنِّي أَرَى مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ نُسْوَةً
 شَبَّيَّنَ لَنَا فِي الصَّدْرِ نَاراً تَلَهُّبٌ
 عَرَفْنَ الْهُوَى مَنَا فَأَصْبَحْنَ حُسْداً
 يُخَبِّرْنَ عَنَا مَنْ يَجِيءُ وَيَذَهَبُ
 وَإِنِّي ابْتَلَانِي اللَّهُ مِنْكُمْ بِخَادِمٍ
 تُبَلَّغُكُمْ عَنِي الْحَدِيثَ وَتَكْذِبُ
 وَلَوْ أَصْبَحْتُ تَسْعِي لِتُوَصِّلَ بَيْتَنَا
 سَعِدْتُ وَأَدْرَكْتُ الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ
 وَقَدْ ظَهَرْتُ أَشْيَاءً مِنْكُمْ كَثِيرَةً
 وَمَا كُنْتُ مِنْكُمْ مِثْلَهَا أَتَرَقَبُ
 عَرَفْتُ بِمَا جَرَبْتُ أَشْيَاءَ جَمِيعَهَا
 وَلَا يَعْرِفُ الْأَشْيَاءُ إِلَّا الْمَجْرُوبُ
 وَلِي يَوْمٌ شَيَّعْتُ الْجِنَازَةَ قِصَّةً
 غَدَاءَ بَدَا الْبَدْرُ الَّذِي كَانَ يُحَجِّبُ
 أَشَرْتُ إِلَيْهَا بِالْبَيْنَانِ فَأَغْرَضَتُ
 تَبَسْمُ طُورَا ثُمَّ تَزَوَّيَ فَسَقَطَتْ
 غَدَاءَ رَأَيْتُ الْهَاشَمِيَّةَ غُذْوَةً
 تَهَادَى حَوَالَيْهَا مِنَ الْعَيْنِ زَبَرَبُ^(۱)

(۱) العين: بقر الوحش. الرَّبَّ: القطيع منها.

فَلِمْ أَرَّ يَوْمًا كَانَ أَحْسَنَ مُنْظَرًا
 وَنَحْنُ وُقُوفٌ وَهِيَ تَنَائِي وَنَنْدُبُ
 فَلَوْ عَلِمْتُ فَوْزًا بِمَا كَانَ بَيْنَنَا
 لَقَدْ كَانَ مِنْهَا بَعْضٌ مَا كُنْتُ أَرْهَبُ
 أَلَا جَعَلَ اللَّهُ السِّفَادَا كُلَّ حُرْرَةً
 لِفَوْزِ الْمُنْتَى إِنِّي بِهَا لِمُعَذَّبٍ
 فَمَا دُونَهَا فِي النَّاسِ لِلْقَلْبِ مَطْلَبٌ
 وَلَا خَلْفَهَا فِي النَّاسِ لِلْقَلْبِ مَذْهَبٌ
 وَإِنْ تَكُ فَوْزٌ بِسَاعَاتِنَا وَأَغْرَضَتْ
 وَأَصْبَحَ بَاقِي حَبْلِهَا يَتَقْضَبُ^(۱)
 وَحَالَتْ عَنِ الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ بَيْتَنَا
 وَصَارَتْ إِلَى غَيْرِ السَّدِيْكِ كُنْتُ أَحْسَبُ
 وَهَانَ عَلَيْهَا مَا أَلَقَيْ فِرَيْنَما
 يَكُونُ التَّلَاقِي وَالْقُلُوبُ تَقْلَبُ
 وَلَكُنْيَيْ وَالخَالقِي الْبَارِئِ الَّذِي
 يُزَارُ لَهُ الْبَيْتُ الْغَتِيقُ الْمُحَبَّبُ
 لَا سَتَمْسِكُنْ بِالْلَوْدَ مَا ذَرَ شَارِقُ
 وَمَا نَاحَ قُمْرِيْ وَمَا لَاحَ كَوْكُبُ^(۲)

(۱) يتقطب: يتقطع.

(۲) القمرى: ضرب من العمام.

وَأَبْكِي عَلَى فُوزِ بَعْنَينِ سَخِينَةٍ
 وَإِنْ زَهَدْتُ فِينَا نَقُولُ سَرَغَبُ
 وَلَوْ أَنَّ لِي مَطْلَعَ الشَّمْسِ بُكْرَةً
 إِلَى حِيثُ تَهُوِي بِالْعَشِيِّ فَسَغَرْبُ
 أَحِيطُ بِهِ مُلْكًا لَمَا كَانَ عِدَلَهَا
 لَعْمَرُكَ إِنِّي بِالْفَتَاهِ لَمُغَجَّبُ
 -جويرية كلين المخ-

أَلَا تَفْتَحْ لِي فُوزُ، مِن الرَّحْمَةِ، أَبْوَابًا
 فَقَدْ أَهْبَتِ النِّيرَا نَفِي الْأَحْشَاءِ إِلَهَابًا
 وَفَوْزُ مَلَكَتْ قَلْبِي فَمَا تَأْلُوهِ إِتْعَابًا
 فِيَا مَنْ سَامِنِي التَّعْذِيبَ بِالْحَاحَاهَا وَإِكْتَابَا^(١)
 وَيَا أَطِيبَ خَلْقِ اللَّهِ بِهِ فِي الْأَسْحَارِ أَنْيَابًا
 أَمَا تَرْضِيَنِي يَا حِبَّ
 لَهُ عَنْ ذِي الذَّنْبِ إِنْ تَابَا^(٢)

كَرِهْتُ الصُّبْحَ أَرْجُو رَاخَةَ اللَّيْلِ إِذَا آبَا
 كَمَنْ فَرَّ مِنَ القَطْرِ فَصَارَ الْقَطْرُ مِيزَابَا
 وَكَانَ اللَّيْلُ لِلشَّوْقِ عَلَى الْمَشْغُوفِ جَلْبَابَا

(١) إكتاب: لعلها مسهل اكتئاب: الحزن. أو لعلها تحريف إكتاب، من أكب على الشيء: أقبل عليه.

(٢) العبة: بكسر الحاء: العبية.

نَفَ شِيْخُ كَانَ كَلَاباً^(١)
 مِنَ التَّسْوِيقِ أَسْبَاباً
 وَسَمِّيَ الْكَلْبُ وَثَاباً
 بِأَحْرَانَا وَأَوْصَاباً
 تُ فِي ذَلِكَ مُرْتَاباً
 وَعَيْسٌ فَقَدْ خَاباً
 نَ أَنَّ الْقَاهُ كَذَاباً
 كَنَّا يَتَّهِينَ جُنَاباً^(٢)
 إِذَا حَلَّ وَإِنْ غَاباً
 بَ مَنْ عَابَ لَمَّا عَاباً
 بِخَ إِنْ حَرَكَتَهُ ذَاباً^(٣)
 لِالْفِي الْبَحْرِ قَدْ طَاباً
 صَغِيرُ السُّنْ مَا شَاباً
 رِ فِي الْفِرْدَوْسِ أَحْقاَباً
 وَمَا تَأْلُفُ أَتَرَاباً
 تُلَقِّبُهُنَّ الْقَاباً
 مِنَ الْغَرَّةِ يَا بَاباً

فَخَالَفْتُ كَمَا خَالَ
 فَلَوْ هَيَا لَهُ اللَّهُ
 لَسَمِّى نَفْسَهُ عَمْراً
 وَفَوْزُ زَرَعْتُ فِي الْقَدْ
 وَلَا وَاللَّهِ مَا أَضْبَخْ
 فَمَنْ عَابَ هَوَى فَوْزٌ
 وَإِنِّي أَبْغَضُ الْإِنْسَاَ
 أَيَا قَلْبَيْنِ قَدْ خُلِقَا
 يَدُومَانِ عَلَى عَهْدِ
 فَلَوْ يَعْلَمُ مَا فِي الْحُ
 جُوَيْرِيَّةِ كَلِيلِيْنِ الْمُ
 وَلَوْ تَنْفَلُ فِي الْبَحْرِ
 وَلَوْ أَبْصَرَهَا طِفْلٌ
 وَكَانَتْ جَارَةً لِلْحُ
 فَأَمْسَتْ وَهِيَ فِي الدُّنْيَا
 لَهَا لَعْبٌ مُضَفَّةٌ
 تُنَادِي كَلِمَا رِيَغَتْ

(١) الشِّيْخُ: الجاد في الأمور، الحذر.

(٢) جَنَاباً: متلاصقين، الواحدة جنب الأخرى.

(٣) المَغْ: نقى العظم، لب العظم، وهو ما نسميه بالنخاع.

-نَعِيمُ الْحُبُّ وَعَذَابُه -

إِنَّمَا الذَّنْبُ لِكَفِّ كَتَبْتُ ذاك الْكِتَابا
فُخْذِي بِالذَّنْبِ عَيْنِي وَادْرَئِي عَنِي الْعِتَابا^(١)
وَفَقَ اللَّهُ مَلِيكًا لَّيْ يَرَى قَتْلِي صَوَابًا
إِنَّ لِلْحُبُّ لِحَالَيْنِ نَعِيمًا وَعَذَابًا

(١) ادرئي : ادفعي ، ردِي ، امنعي .

- لِيْتَ الْحُبُّ لَمْ يُخْلِقْ -

عَتَبْتُ عَلَى نَفْسِي لَعْنِي عَلَيْكُمْ
وَمَا ضَرَّ غَيْرِي فَاعْلَمُ بِذَلِكَ الْعَتْبُ
فَهَا أَنَا هَذَا قَدْ رَضِيْتُ تَحْمِلًا
لِذَنْبِكَ، لَا لَمْ تُذْنِبِ بَلْ لِيَ الذَّنْبُ
أَبَاحَ حَمْيَ قَلْبِي الْهَوَى فَادْلَهُ
أَلَا لِيْتَ لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ يُخْلِقْ الْحُبُّ

- بين الرضا والغضب -

أَيَا غَرَازَ الْذَّهَبِ
أَلِيسَ هَذَا عَجَباً
أَوْلُ مَا جَرَبْتُكُمْ
مَا لَكُمْ لَمْ تَكْتُبُوا
قَدْ شَكَّ فِيمَا جَاءَهُ
فَنَفْسُهُ مَوْقُوفَةُ
يُوْشِكُ أَنْ يَقْتَلَنِي إِلَى
تَرْكَتْنِي فِي نَعْبٍ
بَلِي وَفْوَقَ الْغَرَبِ
عَرَفْتُكُمْ بِالْكُذْبِ
جَوَابَ تِلْكَ الْكُتُبِ
مِنَ الرُّؤْسَةِ الْكُذْبِ
بَيْنَ الرَّضَا وَالْغَضَبِ
حَثُّ وَلَا يُشَعِّرُ بِي

-سخطة في كل يوم-

بَخِلْتُ عَلَيْ أَمِيرِتِي بِكِتَابِهَا
وَتَبَذَّلْتُ بِصُدُودِهَا وَجِجاِهَا
فَالنَّفْسُ فِي كُسْرِ الْهَوْيِ مَغْمُورَةٌ
وَالْعَيْنُ مَا تَنْفَكُّ مِنْ تَسْكِينِهَا
حَتَّى مَتَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَخْطَةً
قَدْ دُبِّتُ مِنْ سَخْطَاتِهَا وَعِتَابِهَا
أَخْذَتْ مُجَامِعَ قَلْبِهِ وَتَحَوَّلَتْ
عَنْهُ فِي الْكَ هَائِمًا بِشَعَابِهَا^(١)
مَاذَا لَقِيتُ مِنْ الْهَوْيِ وَيَخِ الْهَوْيِ
لَوْ أَنَّ نَفْسِي فِي يَدِيْهِ رَمِيَّ بِهَا
خَرَجْتُ سُعَادًا تَقُولُ لِي بِشَمَائِةٍ
زَجَرْتُكَ فَوْزًا أَنْ تَمُرُّ بِبِلَابِهَا
مَاذَا يَرُدُّ عَلَى سُعَادَ مُتَيْمَ
قَدْ ضَاقَ عِيَّا نُطْفَةً بِجَوَابِهَا

(١) الشَّعَابُ، الْوَاحِدُ شَعْبٌ: وَهُوَ الْطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ، الْحَيُ الْعَظِيمُ، النَّاحِيَةُ.

الْوَيْلُ لِي إِنْ قَمْتُ أَطْلَبُ وَضْلَهَا
 وَالْوَيْلُ لِي إِنْ لَمْ أَقْمِ بِطَلَابِهَا
 يَا سُعْدُ هَاتِي لِي بَعِيشِكِ قَبْضَةً
 مِنْ بَيْتِهَا لِأَشْمُ رِيحَ تُرَابِهَا
 فَأَكُونَ قَدْ أُسْقِيْتُ مِنْهَا رِيقَهَا
 وَأَنْلَتُ حُسْنَ بَنَائِهَا وَخِضَابِهَا
 يَا لَيْتَنِي مِسْوَأَكُها فِي كَفَهَا
 أَبْدَا أَشْمُ الْعُبَرَ مِنْ أَنْيَابِهَا^(١)
 أَوْ لَيْتَنِي مِرْطَ عَلَيْهَا بَاطِنَ
 الْتَّذْ نَعْمَةً جِلدَهَا وَثِيَابِهَا^(٢)
 فَأَكُونَ لَا أَنْخَلُ عَنْهَا سَاعَةً
 دُونَ الثِّيَابِ مَجَاوِرًا لِحِقَابِهَا^(٣)

(١) العبر: الكثير من كل شيء. ولعله أراد به العبر، وهو الزعفران أو اخلاط من الطيب.

(٢) المرط: كساء من صوف أو نحوه يؤتزز به.

(٣) الحقاب: ما تشده المرأة على وسطها تعلق به الحلي.

-هبي لي ذنبي-

يا فوز بالله هبي
 ذنبي لي اليوم هبي
 يا بابي يا بابي
 حُبُّكُمْ واحتسبِي^(١)
 يا دُرْتِي يا ذهبي
 فاقتسمِي وانتهِي
 في وارداتِ الْكَرَبِ
 مُشارفِ للكذبِ
 لوصلنا وارتقي
 فاستمعي واقتربي
 منكم رقيب فاكتبي
 ما صنعوا في سببي
 لا تغضبي من غضبي
 من خوف عمي وأبلي
 من حُبُّكُمْ من هربِ

مُنِي عלי وارحمي
 مُنِي على من شفَّهَ
 يا عسلِي يا سُكْري
 صفا فؤادي لَكُمْ
 كيف يطيب العيش لي
 من حاسدٍ يُقدِّفنا
 لا تجزعِي واصطبرِي
 فإن أثنكُم رسلي
 إن خفت أن يفطن بي
 عز على بابي
 بالله يا سيدتي
 أحيد عن بابكم
 قيلني الحُبُّ فما

(١) احتسب، من قولهم: احتسب عند الله خيراً، قدمه.

فِي الْأَقْقِ نَجْمُ الذَّنْبِ^(١)
 يَزَالُ بِي فِي تَعْبٍ
 يَا حَرَبِي يَا سَلَبِي
 مِنْ حُبِّكُمْ فِي نَصْبٍ
 مُخْبِرٌ عَنْ كُرْبَى
 ذُو غُرْبَةٍ عَنْ أَهْلِهِ مُجْتَهِدٌ فِي الْطَّلبِ

★★★

المباعدة تدنني

رَأَيْتُكِ يُدْنِينِي إِلَيْكِ تَبَاعِدِي
 فَبَاعَدْتُ نَفْسِي لِالْتِمَاسِ التَّقْرُبِ
 لَتَرَكِي لَكُمْ وَالْوُدُّ فِيهِ بَقِيَّةُ
 أَؤْمَلُهَا وَالْحِبْلُ لَمْ يَتَفَضَّبِ
 أَحَبُّ لِنَفْسِي مِنْ فِرَاقِ عَلَى قِلَّى
 وَقَدْ فَاتَنِي مِنْ وَدَكُمْ كُلُّ مَطْلَبِ

(١) قوله: نجم الذنب، أراد انه صار مشهوراً بها كما يشتهر نجم الذنب حينما يمر في الأفق، أو انه صار منفرداً في الأرض كما ان هذا النجم منفرد في شكله في السماء.

تزوج وتزوجت
 إلى الله أشكو أن فوزاً تغيرت
 وحالت عن العهد القديم فأنهجا^(١)
 ولما رأت حرصي عليها تحرجت
 وحق على المعشوق ان يتحرجا^(٢)
 وقد خبست ذنباً على تزوجي
 فقلت كلاماً مذنب قد تزوجا
 كلاماً على ما كان من ذاك مكره
 يحاول أمراً لم يجد منه مخرجنا
 كلاماً مشوقاً أنضج الشوق قلبه
 يعالج جمراً في الحشا متاججاً

(١) انهج: أخلاق، رث.

(٢) تحرجت: تجنبت العرج أي الإثم.

- قلبي لها وقلبهالي -

أهاجك صوت قمرٍ ينوح
نعم! فالدموع مطردة سفوح
يلوم العاذلون على التصابي
وقد يهدي إلى الرشد النصيح
ala ma li وللرقباء ما لي
وما لئيم أسكنت أم أصبح
ولولا حطة لخلعت جهراً
عذاري في الهوى إني جموج
لحوني في القرىض فقلت الهو
وما مني الهجاء ولا المديح
يقول الناس: بحث بكل هذا
فقلت: ومن بهذا لا يبوح
أقر الله عيني أن أراني
أعيش وحبنا محض صريح
لها قلبي الغداة وقلبها لي
فنحن كذلك في جسددين روح

قليتَ الوصلَ دام لـنا سلِيماً
 وعِشنا مثلَ ما قد عَاشَ نُوحُ
 فَنَخِيَا عمرنا كَلِفِينِ حتى
 إِذَا مُتْنَا تضَمَّنَـا ضَرِيجُ
 أَلْمَ خِيالُ فوزِ والثُرِيَا
 قُبِيلُ الصُّبْحِ غائِرَةُ جَنُوحُ^(١)
 بـالحسِنِ صُورَةُ وَأَنْمَ خلقٌ
 يُزَيِّنُ حُسْنَـها دَلُّ مـلِيجُ
 فَتَاهَـ قد كـسـاهـا الـحـسـنـ تـاجـاـ
 يُلـجـلـ حـينـ يـبـصـرـها الفـصـيـخـ
 كـدـمـيـةـ بـيـعـةـ بـالـرـوـمـ أـضـحتـ
 يـعـظـمـ عـنـدـ رـؤـيـتـها المـسـيـخـ^(٢)

(١) ألم: زار. جنوح: مائل الى الغروب.

(٢) الدمية: الصورة المزينة فيها احمرار كالدم.

- النَّظَرَةُ الْقَاتِلَةُ -

أيَا لِكِ نَظَرٌ أَوْدَتْ بِقَلْبِي
وَغَادَرَ سَهْمُهَا جَسْمِي جَرِيَحَا
فَلَيْتَ أَمْيَرَتِي جَادَتْ بِأُخْرَى
فَكَانَتْ بَعْضُ مَا يَنْكَأُ الْقُرُونَ حَا
فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِهَا شِفَائِي
وَإِمَّا أَنْ أَمُوتَ فَأَسْتَرِيحَا

★★★

رُوحَانٌ فِي جَسْدٍ

خَلَطَ اللَّهُ بِرُوحِي رُوحَهَا
فَهُمَا فِي جَسْدِي شَيْءٌ أَحَدٌ
فَهُوَ يَحْيَا أَبْدًا مَا أَصْطَحْبَهَا
فَإِذَا مَا افْتَرَقَا مَاتَ الْجَسَدُ

★★★
- ذَلَّةٌ وَخَضْوَعٌ -

فَوْلًا لِمَنْ كَتَبَ الْكِتَابَ بِكَفِيهِ:
إِرْحَمْ، فَذَيْتُكَ، ذِلْتِي وَخُضْوَعِي
مَا زِلْتُ أَبْكِي مَذْقَرَاتُ كِتابَكُمْ
حَتَّى مَحَوْتُ سُطُورَةً بِدُمُوعِي

أَتَعَارُ عَيْنَ لِلْبَكَاءِ؟

غَضِيبُ الْحَبِيبِ فَهَاجَ لِي اسْتِعْبَارُ
وَاللَّهُ لِي مَمَّا أُحَادِرُ جَارُ
كُنَّا نُغَايِظُ بِالْوِصَالِ مَعَاشِرًا
لَهُمُ الْغَدَاءَ بِصَرِّمَنَا اسْتِبْشَارُ
إِذَا أَرَى شِكْلًا يَكُونُ كَشِكِلَنَا
حُسْنَا وَيَجْمَعُنَا هُنَاكَ چَوَارُ
وَكَانَنَا لَمْ نَجْتَمِعْ فِي مَجْلِسٍ
فِيهِ الْغِنَاءُ وَنَرْجِسُ وَبَهَارُ^(۱)
مَا كَانَ أَشَامَ مَجْلِسًا كُنَّا بِهِ
تَلْكَ «الْعَيْشَيَّةُ» وَالْعِدَا حُضَارُ
مَدَنِيَّةُ أَمْسَى الْعِرَاقُ مَحْلَهَا
وَلَهَا بِزُورَاءِ الْمَدِينَةِ دَارُ^(۲)
أَدَنِي قَرَابَتَنَا إِلَيْهَا أَنَّا
شَخْصَانِ يَجْمَعُنَا إِلَيْهِ نِزارُ^(۳)

(۱) البهار: نبت طيب الرائحة.

(۲) مدينة: امرأة منسوبة إلى المدينة. الزوراء: مدينة بغداد.

(۳) نزار: أحد جدد العَرب.

بَا اِيَّهَا الرَّجُلُ الْمُعَذَّبُ قلبِهُ
اَقْصِرْ فِيَّا شِفَاءكَ الْاَقْصَارُ
نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمْوَعَ عَيْنِكَ فَاسْتِعِرْ
عَيْنَا لِغَيْرِكَ دَمْعَهَا مِذْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا
اَرَأَيْتَ عَيْنَا لِلْبُكَاءِ ثُعَارُ؟
الْحُبُّ اُولُّ مَا يَكُونُ لِجَاجَةَ
تَأْتِي بِهِ وَتَسْوِهِ الْاَقْدَارُ
حَتَّىٰ إِذَا اَفْتَحَمَ الْفَتَنِي لُجَجَ الْهَوَى
جَاءَتْ أَمْوَرُ لَا تُطَاقُ كِبَارُ
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْمُحِبِّ غَرَفَتْهُ
وَبَدَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْهَوَى آثَارُ
قُلْ مَا بَدَا لَكَ أَنْ تَقُولَ فَرِبَّما
سَاقَ الْبَلَاءَ إِلَى الْفَتَنِي الْمِقْدَارُ
يَا فَوْزُ هَلْ لِكِ أَنْ تَعُودِي لِلَّذِي
كُنَّا عَلَيْهِ مُنْذَ نَحْنُ صِغَارُ
فَلَقَدْ خَضَّتِكَ بِالْهَوَى وَصَرَفْتَهُ
عَمَّنْ يُحَدِّثُ عَنْكُمْ فِيَغَارُ
هَلْ تَذَكَّرِينَ بِدارِ بَكَرٍ لَهُونَا
وَلَنَا بِذَاكَ مُخَافَةً وَجِذَارُ

مُسْطَاعِمِينِ بِرِيقِنَا فِي خَلْوَةٍ
مِثْلِ الْفِرَاغِ تَزُّقُّهَا الْأَطْيَارُ

أَمْ تَذَكَّرِينِ لِدُلْجَتِي مُتَنَكِّرًا
وَعَلَيِّ فَرَوْا عَاتِقَ وَخِمَارُ

فَوَدِدتُّ أَنَّ الْلَّيلَ دَامَ وَأَنَّهُ
ذَهَبَ النَّهَارُ فَلَا يَكُونُ نَهَارٌ

أَفَمَا لِذَلِكَ حُرْمَةٌ مَحْفُوظَةٌ
أَفْ لِمَنْ هُوَ قَاطِعٌ غَدَارُ

سَاقِرُ بِالسَّذْنِ الَّذِي لَمْ أَجِنْهُ
إِنْ كَانْ يَنْفَعُ عَنِّدَكَ الإِقْرَارُ

مَا تَأْمُرِينَ فَدَتِكِ نَفْسِي فِي فَتْسِي
مَا تَلْتَقِي لِجُفْوَنِهِ أَشْفَارُ

مِنْ كَانْ يُغْضُكُمْ فَبَاتْ مُبِيتَهُ
إِنَّ الْهَوَى لِذَوِي الْهَوَى ضَرَارُ

صَرَمَ الْأَجْبَهُ حَبْلَهُ فَكَانَهُ
إِذْ غَادَرُوهُ وَضَرَهُ الإِضْرَارُ

رَجُلٌ تَطَاوِلُ سُقْمَهُ فِي غُربَهُ
نَرَحَتْ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ الْأَسْفَارُ

لا يستطيع من الضرورة جيلاً
 أمسى ترجم دونه الأخبار^(١)
 حتى أتيح له، وذاك لخينه،
 ركب رمت بهم الفجاج تجأر^(٢)
 حملوه بينهم نحيلًا جسمه
 عاري العظام ثيابه أطمار^(٣)
 فشوى قلبه الأكف ملتفاً
 وله تشد وتوضع الأكواز
 حتى إذا سلكوا به في مهمته
 قفر تضل به القطا وتحار^(٤)
 غرضا من النضو العليل فعطلوا
 منه الركاب وخلفوه وساروا

(١) ترجم: تكلم بها بالظن.

(٢) الفجاج، الواحد فج: الطريق الواسع.

(٣) أطمار: بالية.

(٤) المهمة: القفر، القطا: طير.

- صاحب رأية العشاق -

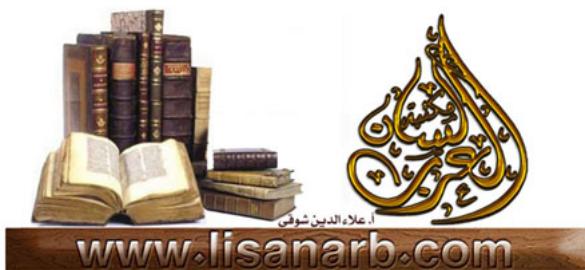
تعس الغرابٌ لقد جرى بفراقِ
هلاً جَرَى بِتَزَوْرٍ وَتَلَاقِ
كيف التخلصُ من هواكِ وإنما
أخذ الإلهُ على الهوى مِيشاقي
ورضيَتْ بعد تنكبي طُرقَ الهوى
أن قيلَ: صاحبُ رأيةِ العشاقِ
قد كنت أشفقُ قبلَ أن يقعَ الهوى
لو كانَ عنِي مُغنىً إِشْفَاقِي

- الإشارة بالأناامل -

يَا مَنْ يُكَاتِمْنِي تَغْيِيرَ قَلْبِهِ
سَأُكْفُّ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ تَتَبَرَّمَا
سَأُكْفُّ عَنْكَ وَفِي يَدِي بَقِيَّةُ
مِنْ حَبْلٍ وَضْلَكَ قَبْلَ أَنْ يَتَصَرَّمَا
يَا لِلرِّجَالِ لِعَاشِقِينِ تَوَافَقَا
فَتَخَاطَبَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَا
حَتَّى إِذَا خَشِيَا الْوُشَاءَ وَأَشْفَقَا
جَعْلَا الإِشَارَةَ بِالآنِامِلِ سُلْمَا

المصادر والمراجع

- ١ - كرم البستاني - ديوان العباس بن الأحنف.
- ٢ - القيراوني - زهر الأداب وثمر الألباب.
- ٣ - الأصفهاني - الأغاني .
- ٤ - ابن المعتر - طبقات الشعراء .
- ٥ - ابن خلkan - وفيات الأعيان .
- ٦ - الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد .
- ٧ - الجاحظ - الحيوان .
- ٨ - شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول .
- ٩ - مصطفى الشكعة - الشعر والشعراء في العصر العباسي .



فهرس الموضوعات

٥	مقدمة
٥	١ - سمات مجتمع العصر العباسى
٥	أ - مجتمع جديد
٧	ب - الشعوبية
٩	ج - الزندقة
١٢	د - المجنون
١٤	ه - الرقيق والجواري والغناء
٢٠	و - الزهد
٢٢	٢ - ازدهار الشعر
٢٤	٣ - التطور العقلي
٢٦	٤ - التجديد في الموضوعات القديمة
٣٢	٥ - موضوعات جديدة
٣٥	٦ - التجديد في الأوزان والقوافي
٣٨	٧ - شعراء الغزل
٤٠	٨ - العباس بن الأحنف

٤٠	أ - هويته
٤٠	ب - صفاته وأخلاقه
٤٥	٩ - أخباره
٤٥	أ - العباس في مجلس الفضل بن الربيع
٤٦	ب - العباس وهارون الرشيد
٤٨	ج - إسحاق الموصلي ينصح الفضل باستعمال قول العباس
٤٨	د - كيف آثر المأمون العباس على غيره
٤٩	١٠ - العباس شاعر الحب والغزل
٥١	١١ - أصحاباته
٥٢	أ - العباس وفوز
٦٢	ب - العباس وظلموم
٦٦	١٢ - العباس والمرأة
٧١	١٣ - الغزل بالرسائل والكتب
٧٦	١٤ - الشكوى والتوجع في شعر العباس
٨٣	١٥ - العباس وفنون الشعر
٨٨	١٦ - صور العشق عند العباس
٩٨	١٧ - مقومات شعر العباس
١١٠	١٨ - آراء كبار الأدباء والفنانين في العباس
١١٨	١٩ - نماذج من شعره
١١٨	- زين النساء

١٢٥	- كل صديق يرضى ويغضب
١٢٨	- جوهرية كلين المخ
١٣٠	- نعيم الحب وعذابه
١٣١	- ليت الحب لم يخلق
١٣٢	- بين الرضا والغضب
١٣٣	- سخطة في كل يوم
١٣٥	- هي لي ذنبي
١٣٦	- المباعدة تدني
١٣٧	- تزوج وتتزوجت
١٣٨	- قلبي لها وقلبها لي
١٤٠	- النظرة القاتلة
١٤٠	- روحان في جسد
١٤٠	- ذلة وخضوع
١٤١	- اتعار عين للبكاء
١٤٥	- صاحب راية العشاق
١٤٦	- الإشارة بالأناامل

مكتبة لسان العرب
www.lisanarab.com